بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربيّة وآدابها

رسالة ماجستير بعنوان:

ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغويّة من كتاباته

The Literary, Critical And Linguistic Culture Of Al-Jahidh Via His Works

إعـــداد:

فدوى محمّد سليمان الخوالدة

الرقم الجامعي: (٠١٢٠٣٠١٠٠٦)

إشـــراف الدكتور:

محمّد محمود الدّروبي

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة آل البيت
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربيّة وآدابها

رسالة ماجستير بعنوان:

ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغويّة من كتاباته

إعـــداد:

فدوى محمّد سليمان الخوالدة

الرقم الجامعي: (٠١٢٠٣٠١٠٠٦)

إشـــراف الدكتور:

محمّد محمود الدّروبي

أعضاء لجنة المناقشة:		التوقيع
١. د. محمّد محمود الدّروبي	مشرفاً ورئيساً	....
٢. أ.د عبد الجليل عبد المهدي	عضواً	....
٣. أ. د عبد القادر الربّاعي	عضواً	....
٤. د . أمين عودة	عضواً	....

قدمـــت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها / تعديلها / رفضها بتاريخ: ....

الإهـــــداء

إلى رفيق دربي "أبو إيمان" محبةً، ومودةً، وتقديراً

وإلى نور عينيّ: "إيمان وفاطمة"

أُهدي هذا الجهد المتواضع ثمرة غرس وباكورة وفاء

كلمة شكر وتقدير ...

أتوجه بالشكر العظيم للمولى القدير الذي أعانني على المضي قدماً لإنجاز هذه الرسالة، كمـــا أشكر الأستاذ المشرف الدكتور محمّد محمود الدّروبي لما قدمه لي من توجيه وإرشاد وما أحاطني به من سعة الصدر، كما أشكر أساتذة القسم لما لهم من أياد بيضاء.

الباحثـــــة

فدوى محمّد الخوالدة

فهرس الموضوعات

ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغوية من كتاباته

إعداد:

فدوى محمّد سليمان الخوالدة

إشراف:

د. محمّد محمود الدّروبي

الملخص بالعربيّة

تعنى هذه الدراسة برصد ملامح ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغويّة، بوصفه أديباً مبدعاً، وناقداً بارعاً من النقاد القدامى، وعالماً لغوياً فذاً، ترك بصمات واضحة في جوانب مهمة من الأدب والنقد واللغة، وكان الانطلاق في هذا البحث من مؤلفات الجاحظ نفسها، مع الإفادة مما كتبه القدامى والمعاصرون مما له علاقة بالحديث عن هذه الثقافة.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول، أما المقدمة فتضمنت أسباب اختيار الموضوع والهدف من الدراسة، ووقفت الباحثة في التمهيد عند العوامل المؤثرة في ثقافة الجاحظ وتكوينه العلمي و تراثه، أما الفصل الأول، فكان الحديث فيه عن ثقافته الأدبيّة: الشعريّة والنثريّة منها. وعقدت الباحثة في الفصل الثاني دراسة عن ثقافته النقديّة، فتناولت ثقافته النقديّة، و البلاغيّة. وأما الفصل الثالث، فكان الحديث فيه عن ثقافته اللغويّة في أربعة مباحث هي: ثقافته اللغويّة والنحويّة والصرفيّة والصوتيّة.

وتوصلت الباحثة إلى أنّ الجاحظ يمثل ظاهرة موسوعيّة في عصره، ولا تزال كتبه وآراؤه وأفكاره مثار اهتمام الباحثين والمؤلفين والمحققين، فأدبه وفكره يمتازان بطابع خاص يشير إلى ثقافته الموسوعيّة، فقد استطاع بما اجتمع لديه من مؤهلات البحث اللغويّ أن يترك آراء ثمينة، وكان له الأثر العميق في الدراسة البلاغيّة والبيانيّة، ومما توصلت إليه الباحثة أيضاً: أنّ الجاحظ كان يتمتع بثقافة أدبيّة واسعة، فهو أديب مبدع وفنان مرهف وكاتب فذ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

اللهُمَّ جنِّبنا فضول القول، والثِّقة بما عندنا، ولا تجعلنا من المتكلِّفين، وأعذنا من كُلِّ سببٍ جانب الطاعة، ودعا إلى المعصية، وارزقنا التأييد والعصمة(١)، أما بعد؛

فقد تميز العصر العباسي الأول بالثراء والرخاء والانفتاح على ثقافات مختلفة، والإقبال على العلوم والآداب، والاتجاه إلى التأليف والتصنيف والترجمة، وقد نبغ رجال عظام في المعارف شتى، رفدوا المكتبة العربيّة بتراث قيّم، تعاقب الأجيال على حفظه والإفادة منه، ويعد الجاحظ من أبرز هؤلاء الرجال الذين خلّدوا أنفسهم بعطائهم الفكري،بما قدّموه من كنوز علميّة ثمينة.

وقد وقعت كتب الجاحظ ورسائله موقع الاستحسان والرضا عند كثير من القراء والباحثين على مرّ العصور السابقة، ولا تزال تراجع وتعتمد في الدراسات الأدبيّة والعلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة...إلخ، نظراً لأهميتها وشموليتها، فقد كان الجاحظ يأخذ من كل شيء بطرف، ويعرض لجميع الموضوعات ويبحثها ويورد بشأنها ما تلقفه من معارف عربيّة أو أجنبيّة، وكان في بحثه يستطرد ويستشهد ما وجد سبيلاً إلى ذلك، حتى قيل إنّه ما وجد باباً إلا طرقه، وما سمع خبراً أو شعراً إلا دونه ورواه.

ولهذا تناولت جانباً مهماً لدى المفكر المتكلم واللغوي والأديب، وهو جانب ثقافته الأدبيّة والنقديّة واللغويّة كما تتراءى من كتاباته التي هي أشبه بمرآة تنعكس فيها الحياة الأدبيّة والعلميّة في العصر العباسي.

تحاول هذه الدراسة رصد ملامح ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغويّة ؛ لأنه كان وما يزال أديباً مبدعاً، وناقداً بارعاً من النقاد القدامى للأدب العربي، وعالماً لغوياً فذاً، وسيكون الانطلاق في هذا البحث من مؤلفات الجاحظ نفسها وهي الحيوان والبيان والتبيين – وكان عليهما أكثر الاعتماد– وكتاب البرصان والعرجان، ورسائل الجاحظ ،والبخلاء ، مع الإفادة مما كتبه القدامى والمعاصرون مما له علاقة بالحديث عن هذه الثقافة.

ثمة دراسات تناولت الجاحظ من حيث أبعاده الثقافيّة المختلفة، ويلاحظ أن الدراسات السابقة في هذا الموضوع اختصت بدراسة موضوعات جزئية في تراث الجاحظ بوصفه ناقداً،

(١) افتتحت صدر تقديمي لهذه الدراسة بمقدمة دعائية مما جرى الجاحظ على افتتاح كتبه ورسائله بها.

أو إماماً من أئمة الأدب، أو لغوياً، والدراسات في ذلك كثيرة، ومنها: الرؤية البيانية عند الجاحظ لإدريس بلميلح، ونظرية الجاحظ في البلاغة، ونظرية الجاحظ في النقد الأدبي لمحمد المصري، والجاحظ والدراسات اللغوية لعطية سليمان أحمد، وهناك دراسات أُخرى بحثت الموضوع بشكل عام من غير التفصيل، ومن الكتب التي عرضت ذلك: الجاحظ حياته وآثاره لمحمد طه الحاجري، والجاحظ منهج وفكر لداود سلوم، وأبو عثمان الجاحظ لمحمد عبد المنعم خفاجي.

وتعد هذه الدراسة جديدة من نوعها من حيث المبنى والمعنى، فهي تقوم على رصد ملامح ثقافة الجاحظ الأدبية والنقدية واللغوية من كتاباته، ولعلها تكون إرهاصاً لدراسات أُخرى يقوم بها باحثون معاصرون في الأدب واللغة.

اعتمدت هذه الدراسة المنهجين: التاريخي والوصفي، فهي تقوم على استقراء ملامح ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغويّة في مصادرها الأوليّة ممثلة بكتبه، والإفادة مما كتبه الدارسون القدامى والمعاصرون عن ثقافته، وتحليل المادة التي تمّ جمعها وتصنيفها تحت فصول ومباحث هذه الدراسة.

وأما خطة الدراسة، فقد ارتأيت أن تكون تمهيداً وأربعة فصول وخاتمة.

ففي التمهيد: تحدثت عن المؤثرات العامة في التكوين العلمي للجاحظ وعن قيمة تراثه العلمي.

وفي الفصل الأول: تناولت ثقافته الأدبيّة بشقيها: الشعريّة والنثريّة.

وأما الفصل الثاني: فتناولت فيه ثقافته النقديّة والبلاغيّة.

وأخيراً الفصل الثالث: وعرضت فيه ثقافة الجاحظ اللغويّة والنحويّة والصوتيّة والصرفيّة. وتلا هذه الفصول خاتمة تبين خلاصة ما انتهت إليه الدراسة من النتائج، تعقبها قائمة المصادر والمراجع.

ومن الصعوبات التي اعترضت الباحثة في هذه الدراسة: صعوبة حصر تراث الجاحظ كاملاً، من كتب ورسائل، إذ قد ضاع معظمها، ودخل الانتحال بعضها، ولم يبقَ إلا القليل جداً منها، فضلاً عن صعوبة استخراج قضايا الدراسة الأدبيّة والنقديّة واللغويّة بصفة عامة من كتاباته، ولا سيّما أنّ كتابات الجاحظ يغلب عليها الاستطراد والتكرار، وخلط الجد بالهزل، إضافة إلى صعوبة تنسيق آرائه الأدبيّة والنقديّة واللغويّة أو تبويبها؛ لأنها متفرقة ومتناثرة.

وفي الختام لا يسعني وأنا أقدم جهدي المتواضع في صورته هذه إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى المشرف الدكتور محمّد الدرّوبي لِمَا قدمه لي من توجيه وإرشاد، وما أحاطني به من سعة الصدر، كما أشكر الأساتذة الأفاضل الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي والأستاذ الدكتور عبد القادر الربّاعي والدكتور أمين عودة ، لتفضلهم بمناقشة هذه الرسالة وتصويب عثراتها، راجية الله جلّ وعلا أن ينفعني بفضل علمهم وحسن توجيهاتهم، وهذا الجهد المقل، فإن أصبت فمن الله والحمد لله، وإن أخطأت فمن نفسي واستغفر الله، فالكمال لله وحده.

"وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"

الباحثة

فدوى محمد سليمان الخوالدة

التمهيد: العوامل المؤثرة في ثقافة الجاحظ

- المؤثرات العامة في تكوين الجاحظ العلمي.
- تراثه وتعدد موضوعاته.

ليس من هدف هذه الدراسة تقديم صورة تفصيلية للمؤثرات العامة في تكوين الجاحظ العلمي؛ لأن مثل تلك الصورة تتطلب دراسة مستقلة تقف على جزئياتها وتحلل دقائقها، ولما كانت ضرورة المنهج العلمي تقتضي تسليط بعض الضوء على تلك الصورة فلا مناص من تقديم صورة واضحة عن أبرز المؤثرات التي تظافرت في تشكيل الجاحظ العالم.

تميزت المدة التي عاش فيها الجاحظ من تاريخ الدولة الإسلامية بميزات عدّة، لعل أهمها ذلك التطور الفكري الكبير الذي نجم عن الالتقاء بين الثقافات الأجنبية المختلفة والثقافة العربيّة الإسلاميّة، ولما كانت شخصيّة الجاحظ تدين للبيئة الثقافيّة التي نشأ فيها، فإنه يجب علينا أن نلم بخصائص تلك البيئة، لنبين كيف كان لها بالغ الأثر في شخصيته.

تعددت الثقافات في العصر العباسي الأول تعدداً ملحوظاً، وازدهرت ازدهاراً لم تعهده الحضارة الإسلاميّة على امتداد عصورها التاريخية، ولما كانت ثقافة أي أمّة من الأمم مرتبطة بجميع جوانب حياتها، دينيّة واجتماعيّة وسياسيّة وأدبيّة واقتصاديّة...الخ[١]، "فلقد كان العصر العباسي الأول من أنسب العصور ملائمة للنهضة الثقافيّة، فمدنيّة الإسلام بدأت تستقر، بعد هدوء حركة التوسع والفتوح، التي كانت طابع العصر الأموي"[٢].

أدى دخول طوائف من الأمم غير الإسلاميّة في الإسلام، وما تبعه من الاختلاط عن طريق السكن والتزاوج والفتوحات والسفر والتجارة، إلى دخول ثقافات متباينة ومختلفة في العراق في ذلك الحين، وقد تمّ هذا في العصر العباسي الأول، الذي ظهرت فيه[٣]: "أربع ثقافات، كان لها الأثر الأكبر في عقول الناس، وهي: الثقافة الفارسيّة، والثقافة اليونانيّة، والثقافة الهنديّة، والثقافة العربيّة، كما كانت هناك ثقافات دينيّة أهمها: اليهوديّة والنصرانيّة والإسلامية"[٤].

ويرجع السبب الأكبر في انتشار هذه الثقافات المختلفة هذا العصر انتشاراً يدعو للعجب والفخر أيضاً إلى حركة "الترجمة من اللغات الأجنبية، وخاصّة من اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة

(١) محمد سعيد القزاز ، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص٧٤

(٢) أحمد شلبي، الخلافة العباسيّة (موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة)، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج٣، ص٢٣٣.

(٣) القزاز ، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ ، مرجع سابق ، ص ٧٠

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، الطبعة التاسعة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م، ج١، ص١٦٣، وجميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص١٣.

إلى العربيّة"(١)، وساعد على ذلك "نضج ملكات المسلمين أنفسهم من البحث والتأليف، وأيضاً تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب وكثرة العمران، واتساع أفق الفكر الإسلامي، بارتحال المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها"(٢).

وقد كان العصر العباسي عصر ترجمة وثقافة، وزاد في ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى، فحيث "ازداد الاحتكاك، والامتزاج بين العرب وغير العرب، والتفاعل بين الفلسفة الإسلاميّة والحضارات الأجنبيّة، بدأ الإقبال على الحياة، والإقبال على العلم"(٣).

ويرى محمد الخضري أنّ عهد الخليفة العباسي المأمون يعد بحق من أرقى عهود العلم والثقافة والمعرفة في العصر العباسي كله، ويسوق لذلك سببين:

السبب الأول: "أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه، حينما كان بمرو، فقد جالس كثيراً من العلماء، وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينيّة، كالحديث والتفسير والفقه، واللغة العربيّة، فكان مُحبّاً للعلم ولإزدياد نشره.

السبب الثاني: ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك، حيث وُجد فيها شوق إلى العلم والبحث، فقد كان المسلم العربي حاذقاً ذكياً، شغوفاً بالاطلاع والبحث، راغباً في الاستفادة، والتزود من هذا الزاد الفكري الرفيع"(٤).

وإذا كانت الثقافات الأجنبية المتباينة والمتعددة في عصر الجاحظ، تركت أثراً بعيداً في الأدب العربي، والفكر العربي، والعقل العربي، بصفة عامة، فإنها لم تستطع أن تطغى على الفكر العربي الإسلامي، فقد ظلّ عربياً إسلامياً كما بدأ، فضلاً على أنّه استفاد من كلّ هذه الثقافات الأجنبيّة الوافدة(٥)، فقد "أثرى الأدب في عصر الجاحظ، بما تُرجم من فلسفة اليونان

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي ، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٣١٣هـ/١٩٦٤م، ص٣٣٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي، مرجع سابق، ج ٣ ص٣٣٣.

(٣) القزاز ، الفكر التربوي عند الجاحظ ، مرجع سابق ، ص٧٥ .

(٤) محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلاميّة (الدولة العباسيّة)، الطبعة الخامسة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، ص٢٠٦.

(٥) القزاز ، الفكر التربوي عند الجاحظ ، مرجع سابق ، ص ٧٧.

ومنطقهم، فقد صبغا عقليّة الأدباء والشعراء بآثارهما العميقة في التفكير والمعاني، وطرافة التقسيم والخيال، كما أثرى كذلك بالمترجم إلى العربيّة من قصص الهند وأدب الفرس"[١].

المؤثرات العامّة في التكوين العلمي للجاحظ:

أحبّ الجاحظ الكلمة وسعى في سبيلها، يطلبها ويتعلمها، ويكد من أجلها، ليجد فيها ضالته إلى عالم الحقيقة، وقصد دكاكين الوراقين لينكب على ما فيها من المخطوطات، وينهل منها من غير ملل، فتكون هي مكتباته، قبل أن يكون له مكتبته الخاصة، وأمّ دور العلماء والكتاب فتتلمذ في اللغة والنحو، وفي علم الكلام والاعتزال على يد النظّام والعلاف، وانتظم إلى المعتزلة فانفتحت له أبواب العقل والمعرفة والوجوديّة المسؤولة.

وجاب أنحاء العراق يطلب العلم ويفسح له فيه، ويتسع صدره، فلا يضيق بالفكر يأتيه من ثقافة فارسيّة أو يونانيّة، وما ظلّ الكتاب له المورد والمعتمد فحسب، بل كان يتجاوزه إلى المجتمع والحياة ليرى ويبصر، ويلاحظ ويراقب، ويحلل ويجرب ويختبر ويعاني ويدرس، ويثقف نفسه بنفسه"[٢]. ويمكن تلخيص العوامل المؤثرة في ثقافته على النحو الآتي:

أولاً: التردد على حلقات الدرس في الكُتّاب:

نشأ الجاحظ في بيت فقير، إذ مات أبوه في حداثة السن، وكفلته أمُّه، وقامت على تربيته، وكانت موارده محدودة، تكاد تكون مقطوعة أحياناً، وعلى الرغم من ذلك كله فقد مضى إلى الكُتاب، يتعلم ما كانت الكتاتيب تقوم بتعليمه لصبيان الطبقة الدنيا من أمثال أولاد القصابين[٣].

ومن الأدلة على تردده على حلقات الدرس في الكتاب قوله: "رأيت كلباً مرّة في الحيّ، ونحن في الكُتاب، فعرض له صبي يسمى مهدياً من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحه، فعضّ وجهه، فنقعَ ثنيّتهُ دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده، فرمى به ملقياً على وجهه، وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه من الدم

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣٦.

(٢) جورج غريب، الجاحظ: دراسة عامّة، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص٢٨

(٣) محمد عويس، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص١٨.

ما ظننتُ أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس، واسكنّه الفزع، وبقي طائر القلب، ثم خيط ذلك الموضع، ورأيته بعد ذلك بشهر، وقد عاد إلى الكتّاب، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيطِ الذي خيط ، فلم ينبحُ إلى أن برئ... حتى إذا رآه صاح: ردوه"(١).

تدلنا هذه القصة على دقة الملاحظة التي تميز بها الجاحظ منذ حداثته، وكان لها دور كبير في إكسابه الدقة العلميّة من بعد، كما تدل القصة على تردده على حلقات الكتاب ناشداً ضالته من العلم فيها.

وهو يذكر بعض من تعلمّ عليهم في صباه، يقول: "ما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير، وأبي عدنان المعلمين، وما لهما من أول ما أذكر من أيام الصبا"(٢).

مما تقدم يتبين أن الجاحظ اتجه منذ الصبا – بالرغم من فقره الشديد– إلى حلقات الكتاتيب، ذلك أن الفقر لم يعقه عن معرفة الكتابة والقراءة، وأخذ في هذا الطور عن بعض المعلمين من ذوي الطبقة الدنيا كأبي الوزير وأبي عدنان. تحدث عن هذين المعلمين في كتبه، فهما من أثار فيه حب العلم والأدب، ودفعاه إلى قصد مورد آخر من موارد العلم وهو المسجد، ولعلهما دفعاه إلى المصدر الثالث وهو سوق المربد.

ثانياً: المسجد:

انتقل الجاحظ من الكُتاب– أول مصادر ثقافته– إلى المسجد. الذي يعدُّ بحق المصدر الثاني من مصادر ثقافته، إذا كان يستمع إلى محاضرات العلماء هناك، وقد كانوا يحاضرون في كلِّ فن، فكانت المساجد بذلك أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب، لكل من أراد الدرس، وأحبّ الحضور لطلب العلم(٣).

ولما امتزجت الثقافة الإسلاميّة والعربيّة في البصرة في العصر العباسيّ بالثقافات الدخيلة عليها، وتعقدّت الحياة البصرية، تبعا لتشابك هذه الثقافات وتعقدها، وساير الجامع في

---

(١) الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م، ج٢، ص١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٩.

(٣) الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، آثار الجاحظ، قدم له وأشرف على اختياره: عمر أبو النصر، مطبعة النجوى، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص١٨.

البصرة هذا التعقيد، بدأت مشاهد المسجد تتغيّر وتتطور، وتتبع في تطورها أسلوباً معقداً بعقد الحياة في البصرة، بكثرة العوامل المؤثرة وتداخلها.

ومعنى هذا أن المسجد ساير أحداث المجتمع البصري وعايشه، وكان نبض المجتمع، ولما سادت ألوان اللهو والترف الماجن، الذي نتج عن الثراء الفاحش، والتحرر الفكري والعقائدي، استنكر المسجد كل هذا، وظهرت فيه مجالس الزهّاد والصوفيّة والقصاص، وقد كان المسجد من عوامل ظهور حركة المعتزلة[١] – التي انضم إليها الجاحظ– وظلّ يساندها بكتاباته.

ومن الشواهد الواضحة على تردد الجاحظ على حلقات العلم في المسجد وإفادته منها قوله: "وكان ابو عبيدة يقدم قصيدة في الغيث على قصيدة عبيدة بن الأبرص "[٢] ، ويستدرك الجاحظ فيقول: "وأنا أتعجب من هذا الحكم" [٣]، ولا يرضى الجاحظ بأحكام أبي عمرو النقدية، فيقول في موضع آخر: "ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه... وربما خيل إليّ أن أصحابها لا يقولون الشعر، وقد بلغ من استجادته البيتين:

لا تَحْسَبَنّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَـى وإنّمَا المَوْتُ مَوْتُ الرِّجَـالِ

كِلاهُمَا مَوْتُ ولَكِـنّ ذا أشدُّ مِن ذاكَ عَلَى كُلِّ حَـالِ

ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلاً حتى أحضر دواة وقرطاساً حتى يكتبها له، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أيضاً"[٤].

ومن الشواهد أيضاً قوله: "وقد أدركت المسجديين والمربديين"[٥]. وكذلك ما ورد في قصة المسجديين إذ يقول الجاحظ فيها : "قال أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر، وكانوا إذا التقوا في حِلَقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه، التماساً للفائدة واستمتاعاً بذكره"[٦].

(١) طه الحاجري، الجاحظ: حياته وآثاره، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص ١٠٢- ١٠٣.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٣- ١٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣١.

(٥) الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م، ج٤،ص ٢٣.

(٦) الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٤٧.

يظهر من جملة ما تقدم من الأدلة في تردده على المسجد، أن الجاحظ تحدث في كتبه عن التيارات الاجتماعيّة والنزعات التي كانت تدور في مسجد البصرة، وقد عدّ نفسه واحداً من أهل المسجد، وبدأ حياته في طلب العلم معهم، ويبدو أن مجالسته في المسجد هي التي فتحت عقله، وجعلته يتعلم طرائق المناقشة والحوار والمناظرة، ولعلّ المناظرات التي ذكرها الجاحظ في كتابه "الحيوان" أو في غير ذلك من كتبه ، هي صدى لما كان يسمعه من المحاضرات في المسجد.

ثالثاً: سوق المربد:

المربد أحد أسواق البصرة، وقد ظلّت صبغته العربيّة غالبة عليه، برغم تغيّر صور الثقافة، حتى إنّه تبوأ مكاناً خطيراً في الحياة الأدبيّة والعلميّة في هذه المدّة، فكان لا بدّ للمتأدب من غشيانه والتردد في جنباته، ليهذب من سليقته اللغويّة، التي توشك في البصرة أن تقتلها العجمة[١].

ولقد كان الجاحظ- نظراً لحبه المعروف للعلم ورجاله- يتردد على المربد، ويتعلم فيه أساليب التعبير والفصاحة من الأعراب الذين كانوا يفدون إلى السوق.

ويذكر ياقوت الحموي أنّ الجاحظ تلقى الفصاحة شفاهاً في المربد من شيوخ الأدب والعلم الذين كانوا يأتون إليه من كل حدب وصوب، إذ كانوا يجلسون فيستمع لهم تلاميذهم، فيأخذون عنهم ما شاءوا، وكان لسماعهم وتذوقهم للأدب تذوقاً صحيحاً أنْ فهموا الحياة العربيّة واللغة العربيّة فهماً واسعاً وصحيحاً[٢].

وكان ممن تلقى العلم عنهم في سوق المربد: الأصمعي[٣]، وأبو عبيدة- الذي قال فيه- "إنه لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه"[٤]. وكذلك الأخفش وغيرهم. ومن الشواهد على تردده على سوق المربد قوله: "وقد أدركت المسجديين والمربديين ومن لم يروِ أشعار المجانين ولصوص الأعراب،و نسيب الأعراب ، والأرجازَ الأعرابيّة القصار،

---

(١) طه الحاجري، الجاحظ: حياته وآثاره، مرجع سابق، ص١٠٠.

(٢) ياقوت الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج٥، ص٢١١٧.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص١٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص347.

وأشعارَ اليهود، والأشعار المنصفات، فإنهم كانوا لا يعدوّنه من الرواة... وقد جلست إلى أبي عبيدة ،و الأصمعي، و يحيى بن نجيم، وأبي مالك عمرو ابن كِركِرة * مع من جالست من رواة البغداديين"[١].

مما تقدم يتبين أن الجاحظ قد تردد على سوق المربد وأخذ الفصاحة شفاهاً، وقد ظل يقترب من الأعراب، ويشير في كتبه كثيراً إلى هؤلاء الأعراب، وإلى دورهم اللغوي، وكثيرا ما نوّه بهم في كتبه، وقد كانت إفادته من المربد إفادة عظيمة، فقد استمع إلى أدب الأعراب، وتعرّف إلى خصائصهم النفسيّة، وكان يصغي إلى محاوراتهم ومحاضراتهم، ولعلّه أفاد من هذه السماعات في تأليف كتبه، ولا سيما كتاب البيان والتبيين، وهو كتاب يقوم على الخطابة والفصاحة.

رابعاً: المجالس العلميّة:

عُدت االمجالس العلمية أماكن لتلقي العلم والأدب في عصر الجاحظ، فإذا مجالس العلم والأدب العامة قد وجدت فيها، فقد كان يقابل هذه المجالس العامّة، مجالس خاصّة، تنعقد في دور الأمراء والأشراف والسُّراة، وغيرهم من أهل البصرة، وهو ما نجيز لأنفسنا أن نطلق عليها كلمة "الأندية الأدبيّة"، التي كانت بعيدة الأثر في تكييف الجوّ الأدبيّ والاجتماعيّ في البصرة وفي توجيه العقول والأذواق فيها[٢].

كما تبوأت الدور والقصور – في عصر الجاحظ- دوراً كبيراً في إحياء البيئة الأدبيّة وتنشيطها، إذ إنها "لم تكن دور لهو فحسب، وإنما عقدت فيها مجالس المناظرة، وفي أفنيتها الواسعة اجتمع الأدباء والعلماء، فكانت تشارك الأسواق في تنشيط الجوّ الأدبيّ والعلميّ والاجتماعيّ، وفي توجيه العقول إلى البحث والمناقشة والتنقيب"[٣].

ولم يغفل الجاحظ أهمية هذا المصدر، فقد شهدها وتأثر بها، وكان لها دور في تشكله العلمي، وهذه المجالس كان أبرز من يحضرها شيوخ المعتزلة الذين درس عليهم، ومن أمثلة

---

* مالك عمرو بن كركرة : كان أبو مالك يعلم في البادية ، ويقال انه : كان يحفظ لغة العرب . قال أبو الطيب اللغوي ك كان ابن مناذر يقول : كان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة ، وأبو عبيده في نصفها ، وأبو زيد في ثلثيها ، وأبو مالك فيه كلها " (معجم الأدباء ج١٦ ، ص١٣١-١٣٢.)

(١) الجاحظ، البيان و التبيين، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣.

(٢) طه الحاجري، الجاحظ: حياته وآثاره، مرجع سابق، ص١١٥.

(٣) أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، الطبعة الأولى ،دار المعارف القاهرة،١١٣٩هـ /٩٧١١ ، ص٣٧ .

هذه الدور: مجلس مويس بن عمران [1] في داره في البصرة، وكان مويس من المتكلمين الأغنياء، وفي داره عقدت مناظرات العلم والكلام- وكان مويس هذا ممن عطف على الجاحظ صبياً صغيراً- ومن المجالس التي كانت تعقد، مجالس آل نوبخت[2] وهم نصارى ومع مرور الوقت أسلموا في العهد العباسي، وفي دار هذه الأسرة كانت تعقد محاضرات ومناظرات وكان روادها ينمازون بالثقافة، ومن المجالس المشهورة أيضاً مجالس آل سليمان الهاشمي، وهؤلاء كان لهم دور عامرة بالمجالس العلميّة والثقافيّة، فقد ذكر الجاحظ أنه دخل على إسحق بن سليمان الهاشمي بعد عزله، فوجده في بيته يمين كتبه ومن حوله الكتب والمساطر والمحابر وخُيّل للجاحظ أن موقعه كان أهيّب من موقعه وهو والٍ، وقد ذكر الجاحظ مجالس أخرى كثيرة في كتبه[3].

خامساً: دكاكين الوراقين:

كانت بيئة الكتب في عصر الجاحظ أصدق، بل أوسع البيئات مجالاً، وأكثرها افتتاناً، وقد كانت هذه البيئة مهمة في نشأة الجاحظ الثقافيّة، إذ كان الكتاب من المؤثرات التي تركت أثرها في الجاحظ، فقد ذُكر أن الجاحظ كان يكتري دور الكتب ليقرأ فيها، حتى قيل فيه إنه لم يُرَ "مَنْ أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته، كائناً ما كان حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر"[4].

ومن الأدلة الواضحة على حب الجاحظ للكتب- بل إنّ من أكبر الدلائل على شغفه بالقراءة والكتب- المقدمة الطويلة التي وضعها بين يدي كتابه الحيوان، وهي نحو مائتي صفحة في تمجيد الكتب، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة، التي صنفها قبل الحيوان. ويرى الجاحظ أنّ "الكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين، مع خفة نقله، وصغر حجمه"[5].

---

(١) محمد عويس، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، مرجع سابق، ص١٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩.
(٣) الجاحظ ، الحيوان ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٦١ -٦٢.
(٤) النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب (ت٣٨٠هـ/ ٩٤٨م)، الفهرست، نشره: يوسف علي الطويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٦٩.
(٥) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٥١.

ويقول في تمجيد الكتاب: "وهو الصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب"[١]، فضلاً على أنه "المعلم الذي وإن

افتقرت إليه لم يُخقّرْكَ، وإن قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة[٢]"

ولعلّ تمهيد الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان جاء تأثرا، بهذه البيئة العلميّة، فقد اطلع على هذه الكتب التي كانت تملأ سوق البصرة، ولاشك أنه طالع الكثير منها وتأثر بها، وبعد إطلاعه عليها حاول أن ينسج على منوالها، ويبدو أن حركة التأليف عند الجاحظ بدأت في الطور البصري المتأخر، تأثرا بحركة الكتاب في البصرة.

سادساً: السفر والترحال:

أحب الجاحظ السفر والترحال، فأكسبه ذلك مزيداً من الثقافة والمعرفة النظرية، وأضاف إليه ثروة كبيرة من العلم، عن طريق المشاهدة العيانيّة، والخبرة المباشرة[٣]، وقد طاف الجاحظ أنحاء العراق، وسافر إلى دمشق، وفي هذا يقول: "وقد رأيت مسجد دمشق"[٤]، وذكر خبر دخوله دمشق وأنطاكية مرّة أخرى، وحاول أن يفيد من التجارب الحياتية في ذكر الخبر الآتي: "واحتاج أصحابنا إلى التسلم من عض البراغيث أيام ، كنا بدمشق ودخلنا أنطاكية، فاحتالوا لبراغيثها بالأسرة فلم ينتفعوا بذلك لأن براغيثهم تمشي ..."[٥]، ويبدو أن الجاحظ طاف بأرض العراق والشام وفارس والروم وبلاد العرب، يقول في هذا: "... ودخلت في البلدان في صحارى جزيرة العرب والروم والشام والجزيرة وغير ذلك ...."[٦].

سابعاً: شيوخه:

ترك شيوخ الجاحظ وأساتيذه ومعلموه أثرا كبيرا في بناء شخصيته وتكوينها، لذا كانوا مصدرا مهماً من مصادر ثقافته وعلمه وتربيته، يذكر أحمد أمين، أنّه "كان في فجر عهد الجاحظ

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ، مصدر سابق ، ج١، ص٥١.

(٢) المصدر نفسه ج١، ص٥١.

(٣) القزاز ، الفكر التربوي عند الجاحظ ، مرجع سابق ، ص١١٢.

(٤) الجاحظ ، الحيوان ، مصدر سابق ، ج١، ص٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٧٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٧، ص٤١.

بالتعليم ثلاثة نجوم لامعة في اللغة والأدب: وهم الأصمعي، وأبو عبيدة، وأبو زيد الأنصاري، "[١]، وكان هؤلاء الثلاثة هم مثقّفوا الجاحظ .

وقد تشرّب الجاحظ من مثقفيه الشيء الكثير، الذي تأثر وانعكس عليه، "ولعلّ روح الأصمعي الفكهة، شعّت على تلميذه الجاحظ فكاهة ودُعابة، وقد توسع فيها، بما مدّته به طبيعته وطبيعة عصره، وأخذ عن أبي عبيدة فكره ودهاءه مع سعة علمه"[٢]، ويقول الجاحظ ذاكراً بعض شيوخه: "وقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي ،ويحيى بن نجيم ،وأبي مالك عمرو بن كِرْكِرة، مع من جالست من رواة البغداديين"[٣].

ومن شيوخه أيضاً: الأخفش[٤] الذي أكثر الجاحظ من النقل عنه، وكذلك محمد بن سلام، والعتبي البصري[٥].إلا أنه برغم تأثر الجاحظ بكل من سبق من شيوخه، فإن أكبر الأثر كان من شيخه النظام في علم الكلام والاعتزال إذ إنّه "تثقف ثقافة الاعتزال، وكان أهم أستاذ له في ذلك النظام"[٦]. وقد اقتدى الجاحظ بأستاذه النظام، الذي كان له دور كبير في التأثير في شخصية الجاحظ بكل أبعادها.

تراثه وتعدد موضوعاته:

عندما يذكر الجاحظ سرعان ما يتبادر إلى الذهن غزارة الإنتاج العلمي الذي خرج عنه، فأبو عثمان معدود منذ القدم في رأس أولئك النفر ممن شُهروا بكثرة التأليف، وضربوا بسهم

---

(١) أحمد أمين، فيض الخاطر، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٤، ص٢٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ج٤، ص٢٨٨.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٣، ص٣٣٦.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٩١.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٤.

(٦) التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمد (ت ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٣، ص١٣٣.

ويراجع: البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، الفرق بين الفِرقَ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٣١.

والثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، ثمار القلوب في المضاف المنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٩٠.

وافر في الكتابة، وهذه الحقيقة يشهد بها خصومه فضلاً عن المتعصبين له: يقول المسعودي مؤكداً ضخامة ما أنتجه الجاحظ: "ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم كُتباً أكثر منه"(١).

وقد ذكر ابن حجر أن عددها يزيد على مائة ونيف وسبعين مؤلفاً(٢)، استناداً إلى إحصاء النديم لها، كما أثبت ياقوت الحموي من هذه المصنفات مائة وثمانية وعشرين مصنفاً(٣)، ذكر الجاحظ منها في كتابه الحيوان أربعين مصنفاً(٤).

أما الأسباب التي أتاحت لأبي عثمان أن ينتج هذا العدد الكبير من الكتب فهي كالآتي:

١- أن الصلة التي انعقدت أواصرها بين الجاحظ ومجتمع عصره، كانت بلا ريب ذات أثر واضح في كثرة مؤلفاته وتشعب اتجاهاتها، فلقد أتيح له أن يعاين أحوال الطوائف الاجتماعية، وأن يعايش قضاياها عن كثب، فكانت كثرة كتاباته حول هذا الموضوع ترجمة حقيقية لتلك المعاينة.

٢- طول عمره، فكانت سنوات حياته تدنو من المائة، ومما لا اختلاف فيه أنّه أفاد من هذا العمر المديد، فكان مِراسهُ في الحياة وخبرته فيها مشاهدة ومشاركة، رافداً خصباً أمده في أكثر كتبه ورسائله تقريباً، ومع أن أمراض الشيخوخة أخذت تطأ فراشه، إلا أن نفسه ظلت مُعلقة بالكتابة والتأليف.

٣- أن ارتباط الجاحظ بمدرسة الاعتزال وما يسودها من حوارات ومناقشات في شتى المعارف، هيأ له مادة تتسم بالوفرة والغزارة والتنوع، فكانت مداده في كثير مما كتب، أضف إلى ذلك أن عناية المعتزلة بالكتابة والتأليف كانت على أشدها في هذه المدة، وربما كان سرّ ذلك يرجع إلى شعورهم بسلطان فكرهم يخضع له الناس، وتتبناه الدولة، وواضح أنّ الكتابة كانت إحدى وسائلهم التي تمكنهم من التوسع في نشر مذهبهم وتعريف الناس بأصوله ومبادئه.

---

(١) المسعودي: أبو الحسن، علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلاميّة، بيروت، د.ت، م٤، ص١٩٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن حجر العسقلاني المصري (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، لسان الميزان، الطبعة الأولى، حيدر أباد، ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م، ص٣٢٠.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مصدر سابق، ج٥ ، ص٢١١٨- ٢١٢٠.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، المقدمة، ج١، ص١٨.

وانظر: الأصفهاني: أبو الفرج، علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٨م)، الأغاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، ج٣، ص٣٠.

٤- يظهر أنّ اشتداد المنافسة بين جمهرة العلماء والمتأدبين في المحيط العلمي الذي نبغ فيه الجاحظ، كان من العوامل التي أذكت في نفسه روح الكتابة والتصنيف، وجعلت مؤلفاته تأخذ حظها الأوفر من الغزارة، والموسوعيّة التي تتواءم مع ما كان العلماء والأدباء يأخذون به أنفسهم من شتى ألوان المعارف في ذلك العصر.

٥- أن ما هو معروف عن الجاحظ من حب العلم والانقطاع في سبيله، بالإضافة إلى ما وُهب من قوة الحافظة وصفاء القريحة ودقة الحس، كل هذه المقومات البناءة جعلته يُقبل على الكتابة والتصنيف تلبية لنداء الطباع المغروسة فيه(١).

كان الجاحظ أديب عصره، وكان أدبه الغذاء الروحي والفكري والفني لكل طبقات المجتمع في زمنه، إذ لم يترك مشكلة في عصره إلاّ كتب فيها، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلاّ صوّره، وقد مثّل الجاحظ في آثاره تشعب الحركة الفكريّة وانطلاق العلوم، واتساع الآفاق والبحث العلمي المؤسس على العقل، وقد أخذ من كل فن بطرف، وخاض في أبواب شتى: من الاجتماع، والأخلاق، والتربية والتعليم ، والطبيعة، والتاريخ الطبيعي، وفلسفة اللغة، والنقد، والبلاغة، والقصة، والمقالة والرسالة، وما إلى ذلك كله، وصورها أروع تصوير وهو يتحدث عن طبقات عصره، فصوّر حيل التجار، والمتسولين، والمتخنثين، وزندقة الزنادقة، وغير ذلك كثير.

وكان الجاحظ أُستاذ عصره، وله مكانته ومنزلته وجرأته، ونظره النقدي المقعّد المبني على التجربة، واتساع آفاق موضوعاته حتى يجد فيها كل إنسان أمنيته، وهكذا وجد الناس صلة ما بينهم وبين الجاحظ، فآثروه وآثروا كتبه؛ لأنها أكثر استنباطاً، وأبرز شخصية، وأوسع مادة، وأبرع فناً، وأقرب إلى حياة المجتمع.

ومما يدل على شهرة كتبه ومجده الأدبي ما رواه أبو حيان "قال: من عجيب الحديث في كتب الجاحظ ما حدثني به علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي، قال: سمعت شيخي أبا بكر ابن الأخشاد يقول: ذكر الجاحظ أسماء كتبه في أول كتاب "الحيوان" وفيها كتاب "دلائل النبوة" وكتاب "الفرق بين النبي والمتنبي" وذكرهما الجاحظ كذلك في الجزء الرابع من الحيوان، ولم أرَ غير "دلائل النبوة" فهمني ذلك، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة، أقمت منادياً بعرفات

---

(١) محمد محمود الدروبي، آثار الجاحظ: دراسة توثيقية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٦٢- ٦٣.

ينادي: رحم الله من دلّنا على كتاب "الفرق بين النبي والمتنبي للجاحظ" فلم أجد من يعرف هذا الكتاب"[١].

وقال ابن دريد: منتزهات القلوب هي: كتب الجاحظ، وأشعار المحدثين ونوادر أبي العيناء"[٢].

وكانت حصيلة كثرة مؤلفات الجاحظ أن تعددت اتجاهاتها وتنوعت موضوعاتها على نحو بيّن الغاية، فآثاره من هذه الجهة أشبه بمتحف يجد فيه القارئ ألواناً من المعارف والآداب والعلوم، وحقاً ألف الجاحظ في أكثر الفنون والأغراض، ومن تلك الأغراض: ألف الجاحظ في علم الحيوان: الحيوان[٣]، الإبل[٤].

وفي الدراسات القرآنية: نظم القرآن، ومسائل القرآن، وكلاهما مفقود، وخلق القرآن[٥].

وألف أيضاً الرد على الفرق الإسلاميّة والملل الأخرى كالرد على النصارى[٦]، والرد على المشبهة[٧]...الخ.*

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مصدر سابق، ج٥، ص٢١١٥.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص١٠٣.

* يراجع محمد الدروبي ، آثار الجاحظ : دراسة توثيقية، لمعرفة نشرات كتب الجاحظ .

(٣) ومن نشراته: نشرة محمد ساسي المغربي في القاهرة بين سنتي ١٣٢٣- ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٥- ١٩٠٧م- ونشره عبد السلام محمد هارون، وهي أجود نشراته، وفي القاهرة بين سنتي ١٣٥٧- ١٣٦٤هـ/ ١٩٣٨- ١٩٤٥م.

- نشره فوزي عطوي، غير العلمية، في بيروت سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- نشره محمد التونجي، غير العلمية، في بيروت سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٤) هذا الكتاب ذكره النديم ويرى بأنه منحول إلى الجاحظ، بيد أن انضمامه إلى جملة الآثار المفقودة، حال دون تقديم أدلة على أساسها معرفة وجه الحقيقة العلميّة فيما يتعلق بمدى صحة نحله إلى الجاحظ. (ص١٨٥)

(٥) طبعت الفصول الباقية من أصل الرسالة أول الأمر على هامش الكامل في القاهرة، بيد أن هذه النشرات جاءت متصلة بكتاب آخر هو حُجج النبوة، وكأنما هي جزء من هذا الكتاب، ومع أنّ السندوبي أعاد إصدار هذه النشرة من جديد سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، إلا أنه سار على الوتيرة نفسها، مما يشير إلى أن النشرة الأولى كانت مظنة نشرته المذكورة. ثم أظهر عبد السلام هارون محققته الجديدة وكانت آخر نشراتها تلك التي أصدرها علي أبو ملحم في بيروت سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، وهي محض إعادة لنشرة عبد السلام هارون. ص(١٥١).

(٦) وكانت أولى نشراتها سنة ١٣٢٣- ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥- ١٩٠٦م، في القاهرة.

(٧) نشرها عبد السلام محمد هارون سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م في القاهرة.

كما ألف في طوائف المجتمع ومنها: رسالة النساء(١)، رسالة الوكلاء(٢)، رسالة القيان(٣)، رسالة القواد(٤)، رسالة فخر السودان على البيضان(٥).

وله كتب في المفاخرات منها: فخر الجواري على الغلمان(٦).

ومن كتبه في الأدب: البيان والتبيين(٧).

وفي الجغرافيا: كتاب البلدان(٨).

وفي الأطعمة والأشربة: كتاب الشارب والمشروب(٩).

---

(١) نشرت سنة ١٣٢٣- ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥- ١٩٠٦م في القاهرة.(ص١٧٤).

(٢) نشرها محمد ساسي المغربي سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م في القاهرة.

(٣) نشرها يوشع فنكل أول مرة في القاهرة سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م، ثم أعاد بعد ذلك عبد السلام هارون تحقيق الرسالة تحقيقا علميا في القاهرة سنة ١٣٨٤هـ- ١٩٢٦م، وتوالت نشراتها بعد ذلك في بيروت، فنشرها "عمر أبو النصر" وأعقبه علي أبو ملحم بنشرة ظهرت سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.(ص١١٢) .

(٤) نشرها داود الحلبي في القاهرة سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٨٧م. (ص١٠٩) .

(٥) نشرت الرسالة عدة مرات، وكان أول من سعى في هذه السبيل المستشرق الهولندي فلوتن سنة ١٣٢١ هـ/ ١٩٠٣م، وظهرت نشرة أخرى في القاهرة ضمن الرسائل التي عُني بها محمد ساسي المغربي، ثم جاء عبد السلام هارون وأظهرها في نشرة علمية محققة في بيروت سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ونشرة علي أبو ملحم ونشرة عبد الأمير مهنا.(ص١٠٣-١٠٤).

(٦) نشرها لأول مرة شارل بلا في بيروت سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م ثم أعاد عبد السلام هارون تحقيقها في نطاق مجموعة الرسائل التي نشرها في القاهرة سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م. (ص١٢٠)

(٧) ومن نشراته: نشرة حسن الفاكهاني ومحمد الزهري الغمراوي في القاهرة سنة ١٣١١- ١٣١٣هـ/ ١٨٩٣- ١٨٩٥م، ونشرة محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، ونشرة حسن السندوبي في القاهرة سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م، ونشرة عبد السلام محمد هارون، وهي أجود نشراته في القاهرة بين سنتي ١٣٦٧- ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨- ١٩٥٠م، ونشرة فوزي عطوي- غير العلميّة في بيروت سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨، ونشرة يحيى الشامي غير العلمية في بيروت سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م.(ص٧٢).

(٨) وكانت نشرته الأولى من عمل شارل بلا في بيروت سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

(٩) ومن نشراته: نشرة الفصول المختارة المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد، ونشرة السندوبي المطبوعة ضمن الرسائل التي أخرجها سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ونشرة عمر أبو النصر وهي مقتبسة في نشرة السندوبي، ونشرة حاتم الضامن ضمن العدد الخاص من مجلة المورد سنة ١٩٧٨م وهي أول

ومن آثاره في السياسة: رسالة النابتة[١].

وفي الاقتصاد: رسالة مدح التجار وذمّ عمل السلطان[٢]، وكتاب التبصر بالتجارة[٣]، وألف في الاجتماع وتعصبه كتباً ومنها: كتاب العثمانية[٤]، وكتاب الرد على العثمانية[٥]، وله كتب في الأخلاق ومنها: رسالة الحاسد والمحسود[٦].

ومما تقدّم يتبين لنا كثرة مؤلفات الجاحظ وتعدد موضوعاتها واتجاهاتها، وهذه السعة والكثرة يقع فيها الدليل الواضح على ثقافته.

= نشرة علميّة لبقايا الكتاب، ونشرة عبد السلام هارون وأخيراً نشرة علي أبو ملحم وهي محض إعادة لنشرة عبد السلام هارون الآنفة.(ص١٥٨).

(١) وكانت أولى نشراته من عمل فان فلوتن في ليدن سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م.(ص١٢٧).

(٢) تعود أقدم هذه النشرات إلى سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م حين نشرت على هامش كتاب الكامل في القاهرة، ثم أعقبها نشرة الساسي في السنة اللاحقة وعن هذه النشرة ظهرت في بيروت نشرة أخرى سنة ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م. وظهرت نشرة حاتم الضامن سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م وتبعتها نشرة عبد السلام هارون في السنة اللاحقة.(ص١٦٨).

(٣) نشرها لأول مرة حسني حسن عبد الوهاب في دمشق سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

(٤) نشرة عبد السلام هارون نشرة علميّة محققة في القاهرة سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م(ص١٠٢).

(٥) أولى نشراته كانت في القاهرة سنة ١٣٢٣- ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥- ١٩٠٦م.

(٦) بدأت العناية بنشر هذه الرسالة عندما طبع طرف منها على هامش كتاب الكامل سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥ م، وقد جاءت هذه القطعة ملحقة برسالة الرد على النصارى وبقيت القطعة على ما هي عليه حتى قام شارل بلا بإعداد نشرة وافية للفصول الباقية نشرها سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م وظهرت في أواخر عقد السبعينات نشرتان محققتان أخرج الأولى حاتم الضامن والأخرى عبد السلام هارون، وكان آخر هذه النشرات تلك التي نشرها علي أبو ملحم في بيروت.

الفصل الأول: ثقافته الأدبيّة

المبحث الأول: ثقافته الشعريّة.

المبحث الثاني: ثقافته النثريّة.

مصادر ثقافته:-

كان أدب الجاحظ- وما يزال- غذاءً فكرياً للكثير من الناس، إذا لم يترك موضوعاً في عصره إلا كتب فيه، ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا صوّره، فكتب في شتى ألوان الأدب، كتب في الخطابة والحكاية والوصية وفي السخرية والفكاهة... الخ؛ ذلك لأنه كان يتمتع بثقافة أدبيّة واسعة فهو معدود في جمهرة الأدباء فنان مرهف وكاتب فذ، قدم لقرائه أدباً جميلاً منمازاً بالوضوح والرصانة والرشاقة في آنٍ معاً، وقد استقى ثقافته هذه من مصادر عدة، لعل أهمها:

أولاً: الينبوع الذي لا ينضب من القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الشّعر العربي، وعليه كان أكثر اعتماده، فتراثه يزخر بكم هائل من الشّعر العربي وخاصة قديمه، منه ما جاء للشاهد والمثل، ومنه ما جاء على سبيل المختارات الشعريّة، ومنه ما جاء لإثبات حجة أو رواية أو لإبطال أخرى.

ثالثا: لم يغفل الجاحظ عن المثل بوصفه مادة أدبيّة تسهم في إثراء فنه، ولهذا نجده حريصاً على أن ينشرها في كثير من كتاباته الأدبيّة.

رابعاً: وكان له مصدر آخر من الثقافة، هو اعتماده الكتب، يقرؤها بنفسه لنفسه، فقد اطلع على الكتب العربيّة، والكتب المترجمة عن الفارسيّة مثل كتاب كليلة ودمنة، والكتب المترجمة عن اليونانيّة ومنها كتب أرسطو.

خامساً: مصدر آخر من ثقافته، يستعملهه الجاحظ أحسن استعمال وأدقه وأوسعه هو انغماسه في الحياة الواقعية واستفادته منها ما أمكنه، وجعله منها موضوعات لأدبه، فكان أدبه صحيفة عصره الذائعة، ينطق فيها بلسان الخلافة والشعب، بلسان الحاكم والمحكوم، بلسان العامل والتاجر والصانع والوزير والأمير والخليفة يدل به الناس إلى الصالح العام، ويكشف لهم خفايا الأمور، ويعلمهم الفضائل، ويوجههم في الحياة وجهة الخير والقوة والإرادة والإيمان والطموح والأمل ويهديهم فيها سواء السبيل.

سادساً: التقاؤه بالعلماء والخطباء في مجالسهم وحلقاتهم- في المسجد وسوق المربد- وأخذه عنهم كل ما وعت صدورهم من علم ومعرفة، ومن أساتذته: الأصمعي صاحب الباع الطويل في اللغة والشعر العربي والمقطعات والأراجيز، ومن أساتذته أيضاً: أبو عبيدة معمر بن المثنى، والخليل بن أحمد الفراهيدي، ومن هؤلاء أبو زيد الأنصاري الراوية الثقة فيما روى، ومنهم أبو الحسن الأخفش(١).

المبحث الأول: ثقافته الشعريّة:

أولاً: الآراء الجاحظية في الشِّعر:

تتجلى ثقافة الجاحظ الشعرية من خلال آرائه المتناثرة التي تضمنتها كتاباته، فلم يغفل الجاحظ عن أهميّة الشعر في تكوين ثقافته.

١- **تعريف الشعر** :-

يقول الجاحظ في صناعة الشعر :"فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج ،و جنس من التصوير " (٢)،فهو بذلك يحدد العلاقة بين الشعر و الرسم ،و كأنه يريد من هذا النص أن يؤكد نظريته في الشكل ، أن المعول إنما يقع على " إقامة الوزن و تخير اللفظ و سهولة المخرج و كثرة الماء و في صحة الطبع وجودة السبك " (٣) .

ويرى الجاحظ أن البيت الشعري لا بدّ من من وجود ترابط بين أجزائه فالبيت عنده هو السطر، وجمعه في لغة الجاحظ أبيات وبيوت(٤). وخير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته(٥). و يقول في موضع آخر من خواص البيت الشعري و هي تآلف الكلمات والحروف ،وعدمه يجعله غير مرغوب وفي هذا يقول: "وإذا كان الشعر مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينهما من التنافر ما بين أولاد العَلاّ ت، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص١٣١.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣١.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١١٦.

مَؤونة"[١] ويقول في جملة ملاحظاته على أبيات الشعر: "وفي بيوت الشعر الأمثال والأوابد، ومنها الشواهد ومنها الشوارد"[٢].

مما تقدم، يتبين أن الجاحظ قد تطرق لأنواع الشعر، وقد ميز في الشِّعر بين مرتبتين متفاوتتين في الأهمية، وهما مرتبة القصيد ومرتبة الرجز، والأولى أرفع شأناً وقيمة عنده، ولم يفته تعريف البيت الشعري، وهذا دليل واضح على ثقافته الشعرية القوية.

و يبدو أن الجاحظ قد ميّز بين هذين النوعين نتيجة لإطلاعه على أشعار الآخرين ،وفي هذا يقول: "وقد أدركت المسجديين والمربديين، ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب، و نسيب الأعراب ،والأرجاز الأعرابية القصار، وأشعار اليهود، والأشعار المنصفات..."[٣].

ويقول الجاحظ في موضع آخر: "إنّ العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة فتضع موزوناً على موزون، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزون على غير موزون"[٤]. ويبدو أن ملاحظة الجاحظ ومقارنته بين الفريقين- أي العرب وغيرهم من الأمم الأخرى أوصلته إلى أفضلية الشعر العربي، فقد وجد أن الشعر العربي يتطابق فيه اللحن الموسيقي والنغم العروضي.

ويقر الجاحظ أن اليونان قد فاقوا العرب في مجال النثر، فهم الأسبق في تدوينه، ويقول في هذا: "وكتب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون ثم بطليموس وديموقراطيس وفلان وفلان قبل بدء الشّعر بالدهور وقبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب"[٥].

٢- نشأة الشعر :-

أما نشأة الشعر، فقد رأى الجاحظ أنها قد استغرقت وقتاً أطول مما بين عصره- القرن الثالث - وظهور الإسلام-[٦] ولذا فإنه يقول موضحاً هذا الرأي: "وقد قيل الشّعر قبل الإسلام في مقدار أطول مما بيننا اليوم وبين أول الإسلام"[٧].

ويبدو إن افتراض الجاحظ لزمن نشأة الشعر العربي تتسق مع افتراض مؤرخي الأدب من أن امرأ القيس هو أكمل الشعراء[١]، وبذلك يكون عمر الشعر العربي المتكامل عمراً

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج١، ص٦٦- ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٩.

(٣) المصدر نفسه ، ج٤، ص٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٣٨٥.

(٥) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٧٤.

(٦) داود سلوم ، الجاحظ : منهج وفكر ، مرجع سابق ، ص١٠٧.

(٧) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٦، ص٢٧٧.

قصيراً، مستدلاً من الخبر التاريخي في شعر امرئ القيس لمقايسة البعد الزمني بين نظم هذا الشّعر وزمن الإسلام.

ويقول في موضع آخر أيضاً: "وأما الشّعر فحديث الميلاد، صغير السِّن، أولُ مَنْ نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومُهلهل بن ربيعة...، فانظر كم كان عُمرُ زرارة، وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا استظهرنا وجدنا له- إلى أن جاء الإسلام – خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"(٢).

٣- منفعة الشعر :

وفي موضع آخر يرى الجاحظ أن منفعة الشّعر مقصورة على صاحبها، وفي هذا يقول: "والشّعر إن هو حوّل تهافت، ونفعه (مقصور) على أهله، وهو يُعد من (الأدب المقصور) وليس بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحيّة وليس بـــ (حقيقة بينة)"(٣).

الواضح من هذا النص أن الشعر منفعته مقصورة على العرب ، وأنها لا تصلح للشاهد والمثل مطلقا .

٤- خصائص الصناعة الشعرية :

ومما يدل على ثقافة الجاحظ الشّعرية أيضاً تحديده خصائص الصناعة الشّعرية، فهو يجملها في قوله: "والشّعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب، لا كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحول من موزون الشّعر"(٤).

يتبين من النص الآنف ما يأتي:

١- يرى الجاحظ أن التجربة الشّعرية تتكون من عدد من المكونات الأولى، وهي الوزن واللفظة والفقرة الموزونة، والقافية والأسلوب والصورة.

---

(١) داود سلوم ، الجاحظ : منهج وفكر ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ . ويراجع : ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، ج١، ص٢٨.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٨٠.

(٤) المصدر نفسه ، ج١، ص٧٥.

٢- يحدد الجاحظ خصائص الصناعة الشّعرية في أنّ الشّعر لا يترجم؛ لأنه يفقد أسلوبه المتميز وموسيقاه المؤثرة، وأن ترجمة الشّعر لا تعطيه التأثير نفسه الذي نراه في النثر المكتوب[١] ، ولقد ظل رأي الجاحظ هذا- وما يزال- هو السائد في البيئات التي تتبنّى مفهوماً للشعر يقوم على تحديد جوهره الفني وخاصته النوعية بالوزن الموسيقي والقافية، أي بالشكل الإيقاعي الخارجي، أما في الأوساط التي تعد الشعر رؤيا إيمائية تتوسل لغة الصورة والرمز وتعتمد على الإيقاع الداخلي بدلاً من اعتمادها على الإيقاع الشكلي، فإن هالة الاعتبار قد تبددت عن رأي الجاحظ وأصبح حكمه باستحالة نقل الشعر وترجمته موضوع شك ونقاش. بل إن كثيرين يرفضونه ويعتقدون أن بالإمكان نقل المناخات الشعريّة وترجمة أجوائها الفنية، ولربما زعموا أن بوسع المترجم المبدع أن يوفق أحياناً إلى تجاوز المستوى الجمالي للأثر الذي يترجمه من غير أن تعوزهم الشواهد والأدلة على ما يزعمون.وعلى الرغم مما تقدم يبقى رأي الجاحظ قائماً في حالات كثيرة لا يستطاع فيها النهوض بترجمة الشعر إلى مستوى الإبداع في لغته الأصلية، أو في شكله الإيقاعي في اللغة نفسها "[٢]، ورأيه هذا- أي استحالة نقله وترجمته مع الاحتفاظ برونقه وإعجازه- دليل واضح على معرفته الدقيقة بالإيقاع الشعري وما يقابله في اللغات الأخرى وهذا ينم عن ثقافة شعريّة واسعة.

وفي موضع آخر يكمل ما ابتدأ به من تلك الخصائص، فيقول: "حفظ الشّعر أهون على النفس، وإذا حُفظ كان أعلق وأثبت وكان شاهداً، وأن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلاً"[٣].

خاصية أخرى من خواص الشعر تظهر في النص الآنف وهي سهولة حفظه فهو اعلق وأثبت على اللسان.

٥- المفاضلة بين الشعراء :

وأما موقف الجاحظ من تجارب الشعراء والمفاضلة بينهم،فمنها تعليقه اللاذع على تجربة الشاعر العمي: "قال العمي":

كسنّور عَبْدِ الله بيْعَ بِدَرَاهِــــــــم   صَغيراً، فلمّا شَبَّ بيْعَ بِقِيرَاطِ

---

(١) داود سلوم ، الجاحظ : منهج وفكر ، مرجع سابق ، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنقد في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص١٢٧.

(٣) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٧٥.

فقد قال : "وصاحب هذا الشعر لو غبر مع امرئ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمة ثم مع جرير والفرزدق والراعي والأخطل ثم مع بشار وابن هُرمة وابن أبي عُينية، ويحيى بن نوفل، وأبي يعقوب الأعور، ألف سنة لما قال بيتاً واحداً مُرضيا أبداً، وقد يضاف هذا الشعر إلى بشار وهو باطل!" (١).

ويعلق الجاحظ أيضاً بعد أن ينقل البيتين الآتيين تعليقاً ساخراً ضاحكاً، قال الشاعر:

لا تَحْسَبَنَّ المَوتَ مَوتَ البِلَــى فإنما المَوْتُ سُؤَالُ الرِّجَــال

كِلاهُمَا مَوْتٌ وَلَكِــــنّ ذَا أَفْظع مِنْ ذَاكَ لِذُلِ السُّــؤال(٢)

قائلا: "وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين- ونحن في المسجد يوم الجمعة- أن كلفَ رجلاً حتى أحضره دواةً وقرطاساً حتى كتبهما له، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمتُ أنّ ابنَه لا يقول شعراً أبداً " (٣)، والقارئ في كتاب الحيوان يجد أمثلة كثيرة على رد الجاحظ أشعاراً لم تأتِ بجديد، ولا تميّز فيها، و هذه الأمثلة وغيرها تمثل شيئاً من ثقافته الشعريّة، فهي تدل على سعة معرفته وقدرته على انتقاد الشعر وتمييز الجيد من غيره، حيث كان قادراً على النقد اللاذع والصريح.

٦- موقفه من المولدين :

يقول الجاحظ في الفرق بين المولّد والأعرابي في قول الشعر : " إن الفرق بين المولد والأعرابي : أن المولّد يقول بنشاطه وجمع باله ، الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو ، فإذا أمعن انحلت قوته ، واضطرب كلامه " (٤).

والجاحظ " لا يميل الجاحظ إلى الإفراط والمبالغة في رسم الصورة، ولهذا فقد اتهم المولدين بالإفراط في رسم الصورة، ولم يرَ في ذلك ميزة ولا إبداعا ولا جديداً، يقول متهماً المولدين بهذا الميل إلى الصورة المبالغ فيها(٥): "أفرط المولدون في صفة السرعة، وليس ذلك بأجود، فقال شاعر منهم يصف سرعة كلبه بسرعة العدو:

كأنما يرفع ما لا يُوضع ......

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٥، ص٣١٥- ٣١٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣١.

(٣) المصدر نفسه ، ج٣، ص١٣١.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣٢.

(٥) داود سلوم ، الجاحظ : منهج وفكر ، مرجع سابق ، ص١١١.

وقال الحسن: ما أن يقعن الأرض إلا فرْطا ...."[1]

وقال في موضع آخر، يعلق فيه على مدح الكميت تعليقات لاذعة، قال الجاحظ: "ومن المديح الخطأ الذي لم أرَ قط أعجب منه قول الكميت بن زيد ، وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم...."[2].

قال الكميت في مدحة الرسول صلى الله عليه وسلم:

وبُورِكَ قبْرٌ أنتَ فِيْهِ وبُورِكْتَ … بهِ ولَهُ أهْلٌ بذلِك يَثْـــــــربُ

لقدْ غيّبوا براً وحَزْماً ونَائِـــــلاً … عَشِيَةَ وارَاكَ الصَفِيح المنْضَّبُ

يعلق الجاحظ قائلاً:

"فلو كان لم يمدحه ، عليه السلام ، إلاّ بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود ، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا"[3].

من الأمثلة الآنفة الذكر يتبين أن سعة ثقافة الجاحظ واطلاعه الوافر جعلته قادراً على نقد الآخرين نقداً لاذعاً وصريحاً.

أما بالنسبة لموقف الجاحظ من الصراع بين القديم والحديث، فقد كان له رأي صريح، فقد كان توفيقي النظرة لا يعتقد بتفضيل قديم على محدث[4]. وهذا ما نجده في قوله: "وقد رأيت أناساً يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون من رواها، لم أرَ ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمن كان"[5]. وتبدو نظرته التوفيقية واضحة في المثال الآتي، عندما تحدث عن أبي نواس قال: "وإن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً"[6]، بل أنه ذهب إلى تفضيل قصيدة لأبي نواس على قصيدة لمهلهل في الشاعريّة[7]، وتفضيله قصيدة على أخرى وفقاً لأحكامه النقدية دليل واضح على ثقافته الشعريّة.

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق ، ج٢، ص٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٦٩-١٧٠ .

(٣) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق ، ج٥، ص١٧١.

(٤) يوسف غيوة، الأسس الجمالية في الأحكام النقدية للجاحظ، قضية القديم والحديث أنموذجا، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، العدد ٢٥، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٩٣.

(٥) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٠.

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٩.

ولما كان للشعر أهمية ومنزلة سامية في الأدب، فقد كان لازماً على الأدباء القيام بجمعه، وقد كان للجاحظ له أثر كبير في جمعه ولاسيما أن العصر الذي عاشه الجاحظ عصر امتزجت فيه الثقافات المختلفة وتزاوجت الأجناس واختلطت الأنساب، وقد أكثر من الاستشهاد بالنتاج الشعري الذي يصعد إلى أوائل العصر العباسي، وأكثر ما كان يعتمد على مصادر الأصمعي؛ لأنه لم يكن قد شارك في هذا الجمع(١).

٧- غزارة الاستشهاد بالشعر :

والناظر في مؤلفات الجاحظ يجدها غنيّة بالشواهد الشعريّة التي استثمرها، ففي كتابه الحيوان استشهد بـــ ٦٧٧٧ بيتاً تقريباً، وفي البيان والتبيين استشهد بـــ ٣٦٨٧ بيتاً تقريباً، وفي كتاب البخلاء استشهد بـــ ٣٨٥ بيتاً، وفي البرصان والعرجان استشهد ١١٥٤ بيتاً تقريباً*، وهو بهذا الجمع يشكل جمهرة للشعر العربي وفي هذا دلالة واضحة على سعة ثقافته الشعرية.

ويصور الجاحظ المشهد الذي تجري فيه مناشدة الأشعار علناً في ساحة المربد أو المسجد فيقول: "وقد أدركت المسجديين والمربديين، ومَن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب، والأرجاز الأعرابية القصار، وأشعار اليهود، والأشعار المنصفات فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة، ثم ابستردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء، ولقد شهدتم وما هم على شي أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف، فما هو إلاّ أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ثم رأيتهم منذ سُنّيات وما يروي عندهم نسيب الأعرابي إلاّ حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتيانيّ متغزل، وقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو بن كِركَرة مع من جالست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده، وكان خلف يجمع ذلك كله. ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه أعراب ، ولم أرى غاية رواة الأشعار إلا كل فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلاّ كل شعر فيه الشاهد والمثل..."(٢).

يرى إحسان عباس أن من الغريب أن الجاحظ " وهو يعد من أصناف الرواة واستثمارهم للشعر في خدمة أهدافهم، من نحو وغريب وشاهد ومثل، لم يحس أنه وقع في مثل

---

(١) يوسف غيوة، الأسس الجمالية في الأحكام النقدية للجاحظ، مرجع سابق، ص٢٩٥.

* هذا الإحصاء من عمل الباحثة.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣- ٢٤.

ما وقعوا فيه، فاستغلّ الشعر مصدراً لمعارفه العامة، بل أنه جاء بأشعار وشرحها؛ لأن شرحها يعينه على استخراج ما فيها من معرفة علميّة، وهو إذا أخذ الشعر بمعزل عن الاستشهاد فإنما يريده للمذاكرة أو الترويح عن النفس كغيره من نقاد عصره،وعلى الرغم من هذا التناقض، فقد تميز الجاحظ عن جميع الرواة، بل تميز عن جميع من ألموا بالشعر في القرن الثالث، ومردّ هذا إلى طبيعته الذاتيّة وملكاته وسعة ثقافته الشّعرية خاصة" (١).

٨- **الطبع الشعري :**

ويميز الجاحظ بين الشاعر المطبوع، والشعراء الرواة، وعبيد الشعر ، كما يصنف الشعراء إلى طبقات ومراتب وهذا التمييز والتصنيف جاء نتيجة لثقافته الشعريّة الواسعة.

فالشعراء العرب المطبوعين هم من قال الجاحظ فيهم : "... وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيّد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانة من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد....."(٢).

" أما الشعراء الرواة منهم، كما يبدو، فهم وأولئك الذين يجمعون إلى فضيلة نظم الشعر، فضيلة حفظ الكثير من آثاره وروايتها، فضلاً عن علمهم بالشعر وأصحابه وأخباره، وبشأن الفئة المسماة "عبيد الشّعر"، وهم أنصار مدرسة التنقيح وقصائد الحوليات، وعلى رأسهم زهير والحطيئة وأتباعهم من المولدّين في العصور الإسلاميّة التالية" (٣)، فقد قال الجاحظ فيهم: "كذلك كل من جوّد في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة، وكان يُقال:" لولا أن الشّعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين، الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً"(٤).

ولم يغفل الجاحظ عن تقسيم الشعراء إلى طبقات، واعتمد في ذلك نوعين من التقسيم:
التقسيم الأول: يصنف الشعراء طبقات ثلاثاً: "الشاعر، والشويعر، والشعرور"(٥).

---

(١) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٨٢

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٣، ص٢٨.

(٣) ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنقد في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص١٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠.

يرى إحسان عباس أن من الغريب أن الجاحظ " وهو يعد من أصناف الرواة واستثمارهم للشعر في خدمة أهدافهم، من نحو وغريب وشاهد ومثل، لم يحس أنه وقع في مثل ما وقعوا فيه، فاستغلّ الشعر مصدراً لمعارفه العامة، بل أنه جاء بأشعارٍ وشرحها؛ لأن شرحها يعينه على استخراج ما فيها من معرفة علميّة، وهو إذا أخذ الشعر بمعزل عن الاستشهاد فإنما يريده للمذاكرة أو الترويح عن النفس كغيره من نقاد عصره،وعلى الرغم من هذا التناقض، فقد تميز الجاحظ عن جميع الرواة، بل تميز عن جميع من ألموا بالشعر في القرن الثالث، ومردّ هذا إلى طبيعته الذاتيّة وملكاته وسعة ثقافته الشّعرية خاصة" (١).

٨- الطبع الشعري :

ويميز الجاحظ بين الشاعر المطبوع، والشعراء الرواة، وعبيد الشعر ، كما يصنف الشعراء إلى طبقات ومراتب وهذا التمييز والتصنيف جاء نتيجة لثقافته الشعريّة الواسعة.

فالشعراء العرب المطبوعين هم من قال الجاحظ فيهم : "... وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيّد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانة من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد....."(٢).

" أما الشعراء الرواة منهم، كما يبدو، فهم وأولئك الذين يجمعون إلى فضيلة نظم الشعر، فضيلة حفظ الكثير من آثاره ورواياتها، فضلاً عن علمهم بالشعر وأصحابه وأخباره، وبشأن الفئة المسماة "عبيد الشّعر"، وهم أنصار مدرسة التنقيح وقصائد الحوليات، وعلى رأسهم زهير والحطيئة وأتباعهم من المولدّين في العصور الإسلاميّة التالية" (3)، فقد قال الجاحظ فيهم: "كذلك كل من جوّد في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة، وكان يُقال:" لولا أن الشّعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين، الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا"(٤).

ولم يغفل الجاحظ عن تقسيم الشعراء إلى طبقات، واعتمد في ذلك نوعين من التقسيم:

---

(١) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٨٢

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٣، ص٢٨.

(3) ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنقد في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص١٣.

وأما التقسيم الثاني: فيصنفهم أربع طبقات: طبقة الفحل الخنذيذ، وطبقة الشاعر المفلق، وطبقة الشاعر، وأخيرا طبقة الشويعر"(١).

ويشير الجاحظ في البيان والتبيين إلى أهمية الشعراء ودورهم في المجتمع قائلا : "كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم للشعر، الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبه، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر..." (٢).

ولم يغفل الجاحظ الحديث عن زي الشعراء، فقد كانوا في القديم يرتدوا ثياباً خاصة بهم ذات ألوان مزركشة، وأردية سوداء اللون وغير ذلك مما تتميز به عن سواها من الناس(٣)، وفي كتاب البيان والتبيين نجده يقول في هذا: "وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقطّعات، والأروية السود، وكل ثوب مُشهّر"(٤)، ويقول في موضع آخر: "وقد كان عندنا منذ نحو خمسين سنة شاعر يتزيّا بزيّ الماضيين، وكان له بُردٌ أسود يلبسه في الصيف والشتاء، فهجاه بعض الطيّاب من الشعراء..." (٥).

ومن جملة ما تقدم يظهر أن الجاحظ قد ألم بكثير من القضايا التي تخص الشعر، فلم يترك قضية مهمة إلا سجلها وعلقّ عليها بنقد لاذع، وفي هذا دلالة واضحة على سعة ثقافته الشّعريّة وتعدد روافدها.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج٢، ص٩.

(٢) المصدر نفسه ، ج١، ص٢٤١.

(٣) ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنقد في أدب الجاحظ، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق،ج٣، ص١١٥.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١١٥.

ثانياً: شعر الجاحظ:

"عـاش الجـاحظ أكثر حياته في البصرة، وكانت في عصره قد بلغت الغاية في ازدهار الـشعر والـشعراء وكانت ملتقى للكبار من شعراء العصر العباسي كأبي نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك والجماز والحمدوي وأبان اللاحقي والعطوي وغيرهم من شـعراء عـصره، هـذه النهـضة الشعرية جعلت أبا عثمان -إمام البيان- يتجه إلى نظم الشّعر ويوجهه حيث ما استطاع من مدح وهجاء واخوانيات.

ومـع أن العلماء لم يتفقوا في مدى ما ذهب إليه الجاحظ في نظم الشّعر من قلة أو كثرة، إلا أنهـم اتفقـوا علـى ضعف هذا الشعر ولينه، وإن نسبت إليه أبيات ذات قيمة فنيّة نفوها عنه وقالوا: إن هذا الشّعر أرفع طبقة من شعره"[١].

ولعل من أهم الأشياء التي تسترعي نظر الدارس عدم ورود الإشارة في المظان القديمة إلـى ديـوان أفـرده الجاحظ يضم أشعاره المنظومة، وقد يكون أبو عثمان لم يعبأ بجمع شعره مدفـوعاً بمـا يجـده في نفسه من شاعرية لا ترقى إلى مستوى الجودة والكثرة، ونحو ذلك مما امتاز به العديد من شعراء تلك المدة كأبي تمام والبحتري وابن الجهم ومن إليهم.

وقـد أشـار حاجـي خليفة- من المتأخرين- إلى ديوان تركة الجاحظ، وكذلك رمضان شـشن وشارل بلاّ وإمتياز عرشي من المعاصرين، وقد صدر هؤلاء عن إشارة صاحب كشف الظـنون، ومهمـا يكـن، فمن المحتمل أن يكون بعض المتأخرين أفرد ما وقع له من شعر قاله الجاحظ في مجموع وسم بـ "ديوان الجاحظ" هو نفسه المقصود بإشارة حاجي خليفة[٢].

وقـد نهض محمد جبار المعيبد بجمع ما بقي من شعر الجاحظ في بطون الكتب، ونشره فـي مجلة المورد سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ثم نشره ثانية في كتابه "شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري".

وقـد طـرق الجاحظ المدح في شعره أكثر من أي غرض آخر، مدح الوزير محمد عبد ابن الملك الزيات، والقاضي المعتزلي أحمد بن أبي دُواد، والوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وكتاب الدواوين كأبي الفرج محمد بن نجاح بن سلمة وإبراهيم بن رباح وغيرهم[٣].

---

(١) محمـد جبّار المعيبد، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري: دراسة ونصوص "العطوي، الجاحظ، الحمدويّ"، الطبعة الأولى، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٧٥.

(٢) محمد الدروبي، آثار الجاحظ: دراسة توثيقية، مرجع سابق، ص١٥٢.

(٣) محمد جبّار المعيبد ، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري ، مرجع سابق، ص٧٥ .

أما ابن الزيات فقد كان مختصاً به مقدماً عنده، وقد أهدى له أكبر كتبه (الحيوان)، لذلك لا تـستغرب أن تجده بين ممدوحيه، وحينما قبض أحمد بن أبي دُواد على ابن الزيات عفى عن الجاحظ وقربه ونال عنده خطوة(١).

وكـان يمـدح أحياناً بقصيدة واحدة أكثر من شخص، ومن ذلك القصيدة التي مدح فيها أحمد بن أبي دُواد وإبراهيم بن رباح ومحمد بن الجهم(٢).

وأمـا الهجـاء، فقد وصلت إلينا قطعة واحدة في هجاء الجماز- وهو من أكثر شعراء البصرة فُحشاً- وفي هجائه يقول:

نَسَبُ الجَمّاز مَقصُـــو رٌ إليْه مُنْتَهَـــاهُ

تَنْتَهي الأحْسَابُ بالنـــا س ولا تَعدُو وَقَفَـــاهُ

يتَنَاجَى فِيْ أبي الجَمّـــ از: مَنْ هُوَ؟ كاتِبَـــاهُ

ليسَ يَدْرِي مَنْ أبُو الجَـ مّاز إلا مَنْ بَـــرَاهُ(٣)

وله أشعار غزلية نسبها إلى حرفيين شعبيين عاصرهم، وقد نقل الحصري هذه الأشعار وعلق عليها بقوله: "والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار، وكان قديراً على الشعر سراقاً له..."(٤).

ومن شعره المحفوظ في طيات كتب القدامى:

يَطِيْبُ العَيْشُ أنْ تَلْقى حَكِيمَـاً غَذَاهُ العِلم والظّن المُصِيْـــبُ

فَيكْشِفُ عَنْكَ حِيرَةَ كلِّ جَهْـل فَفَضْلُ العِلْمِ يعرفهُ الأدِيْـــبُ

سِقَامُ الحِرْصِ لَيسَ لَـهُ دَوَاء وَدَاءُ الجَهْلِ لَيْسَ لهُ طَبيــبُ(٥)

---

(١) محمد جبّار المعيبد ، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري ، مرجع سابق ص٧٦ ويراجع : ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مصدر سابق، ج١٦، ص٢١٠٣.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٦ .

(٣) ابتسام مرهون الصفار، تعقيباً على شعر الجاحظ، مجلة المورد، المجلد٤، العدد١، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٢٧٦.

(٤) محمد جبّار المعيبد ، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري ، مرجع سابق ص٧٦.

(٥) الحـصري، أبو اسحاق، إبراهيم بن علي القيرواني، ت٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ١٤٨.

وله أشعار كثيرة ضمنها كتبه، ومن ذلك قوله:

كَفَى أدَباً لِنَفْسِكَ مَا تَـــرَاهُ　　　لِغَيْرِكَ شَائِناً بَيْنَ الأنَـــــام (١)

يتبـــين أن الجاحظ بالرغم من بلوغه منزلة سامية في النثر الفني والعلمي؛ فإنه استوى له من الشعر والشاعرية، ما يصح أن نطلق عليه من أجله لقب الشاعر. ولكنه لم يتفوق فيه، ولم يطرَ له اسم في مجال شهرة، إذ عني بكتبه وبالكتابة أكثر مما عُني بالشّعر.

المبحث الثاني: ثقافته النثرية:

كانـــت روح الشك والنقد والبحث منتشرة في عصر الجاحظ أكثر ما كانت عليه في أي وقـــت ســـابق، وقـــد ساعدت هذه الروح الجاحظ على الاطلاع الواسع على المعارف والثقافات والكتابة بأسلوب فكه ذكي واسع الأفق.

وقد خدم الجاحظ اللغة العربية بجميع فروعها بما تضمنته كتاباته من رسائل ومختارات أدبـــية لـــصفوة ما قيل من شعر ونثر وحكمة، فضلاًعن الحكايات ذات المغزى العميق حول كل موضـــوع يمكـــن تـــصوره، وهذه بدورها أولت اهتماما كبيرا صريحا وضمنيا للغة واستعمالها النموذجـــي، وقـــد كانت هذه المؤلفات تشكل صميم النثر الفني العباسي الخالص، ونتيجة لأهمية ذلـــك، فلا بد من التطرق للفنون النثرية التي تضمنتها آثار الجاحظ بوصفها تشكل ملامح ثقافته في النثر:

أولاً: الخطابة:

لقـــيت الخطابة عند الجاحظ اهتماما كبيرا، ولا سيما في كتابه البيان والتبيين، وقد كان الـــسبب في اهتمامه بالخطابة العربيّة الرَّد على افتراءات الشعوبية وحملتهم الظالمة ضد الخطابة والخطـــباء العرب، واتهامهم لها ولهم بشتى التهم والأباطيل، فكان رد الجاحظ عليهم استعراضه للخطابـــة العربية استعراضا شاملا، وتسمية أشهر الخطباء العرب وأساليب الخطابة وأغراضها عند العرب(٢).

---

(١) الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـــ / ٨٦٩ م) ، رسائل الجاحظ ، جمعها ونشرها : حسن السندوبي الطبعة الأولى ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٣٥٣هـــ / ١٩٣٢م ، ج٢ ، ص ٣٠ .

(٢) عامر حسين عيسى الحلفي، أدب ما قبل الإسلام في تراث الجاحظ، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة البصرة، البصرة، ١٤١٠هـــ/ ١٩٩٠م، ص١٨١.

وكان في نية الجاحظ القيام بدراسة كاملة للتطور التاريخي للخطابة العربية، وقد صرح بهذه النية في مواضع من كتاب "البيان والتبيين"، ومنها قوله: "وإذا صرنا إلى ذكر ما يحضرنا من تسمية خطباء بني هاشم ، وبُلغاء رجال القبائل، قلنا في وصفها على حسب حالهما، والفرق الذي بينهما، ولأننا عسى أن نذكر جملة من خطباء الجاهليّين والإسلاميّين، والبدويّين والحضريّين، وبعض ما يحضرنا من صفاتهم، وأقدارهم ومقاماتهم، وبالله التوفيق"[١].

وأوضح مثال على نية الجاحظ هذه، نجده – وإن كان يعتذر فيه عن عدم تمكنه من تحقيق نيته– في قوله: "كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ونقسّم أمورهم باباً باباً على حِدته، ونقدِّم من قدمه الله ورسوله عليه السلام في النّسب، وفضله في الحسب، ولكني لما عجزت عن نظمه وتنفيذه، تكلفت ذكرهم في الجملة"[٢].

وقد كان للخطيب في نظره منزلة عالية لا يرقى إليها إلاّ من كان ذا بيان، وأحسّ في نفسه النفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنّة يوم الحفل فعلى المرء أن يتلمس البيان والتبيين إن ظنّ أنّ له فيهما طبيعة ويناسبانه بعض المناسبة "أولم يكن شعيب "النبي" كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: خطيب الأنبياء؟ أولم يكن أيضاً لرسول الله شعراء ينافحون عنه وعن أصحابه بأمره، وكان ثابت بن قيس الشماس الأنصاري خطيب رسول الله"[٣].

ويحدد الجاحظ ما ينبغي أن يكون عليه كلام الخطيب بقول أبي داود بن حَريز: "تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق عن غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون الناس عي، ومس اللحية هلك، والخروج مما بُني عليه أول الكلام إسهاب"[٤] ويقول أيضاً: "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الأعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه"[٥]، وقد أنشد بيتاً في صفة خطباء إياد وهو قوله:

يَرْمونَ بالخُطَبِ الطِوالِ وتَارَةً وَحْيَ المَلاَحِظِ خِيْفَةَ الرُّقَبَاءِ[٦]

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٩١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٠-٢٠١.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤.

وقـد ذكر أن هنالك من جمع بين الشعر والخطابة، فكان إذا تحدّث أو وصف أو أحتج كـان بلـيغاً مفوهاً بيناً، وهنالك مَنْ كان خطيباً فقط وشاعراً فقط وبيّن اللسان فقط، وذكر من الشعراء الخطباء الحكماء "قُسُّ بن ساعدة الأيادي، ورأى أن الخطباء كُثر والشعراء أكثر منهم، وإن مـن يجمع الخطابة والشعر قليل ومنهم: "عمرو بن الأهتم المنقري وهو المكحل، وعمران بـن حطـان، ودَغفَل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة، والقعقاع بن شور، ونصر بن سيّار، وأعشى همدان، وعمران بن عصام العنزي، وعيسى بن يزيد بن دأب أحد بني ليث، وكلثوم بن عمـرو العتابي، وعلي بن إبراهيم بن جَبَلَة بن مَخرَمَة، وعجلان بن سحبان الباهلي، وزيد بن جندب الإيادي...إلخ[١].•

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٤٥-٥٢.

• (عمـرو بـن الأهـتم) هو عمرو بن سنان بن سُميّ التميمي والأهتم لقب ابيه سان ، وفد عمرو الى رسول الله في وفد تميم ، وكان سيدا خطيبا شاعرا . راجع زهر الأداب ج١ ص٣٩ .

(عمـران بن حطان) هو أبو سماك عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي ، راس القعدة من الصفرية ، وخطيـبهم وشاعرهم ، ادرك جماعة من الصحابة وروى عنهم توفي سنة٨٤ هـ ، راجع الأغاني ج ١٨ ص ٤٩ ــ ٥٠.

(نصر بن سيّار) أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خرسان ، سنة ١٢٠ هـ ، ولاه هشام بن عبد الملك مات سنة ١٣١ هـ بساور . راجع البيان والتبيين ج ١ ،ص٤٧

(عمـران بن عصام العنزي) شاعر وخطيب ذو لسان وذو جلد وشجاعة ، عرفه الحجاج فبعثه الى عـبد الملك بن مرون لينزع الولاية من أخيه عبد العزيز بن مروان ، ويجعلها لابنه الوليد بن عبد الملك ، فقام بذلك ، ولم يلبث عبد العزيز الا ستة اشهر حتى مات ، فلما كان زمان ابن الأشعث خرج عمران بن عصام معهم على الحجاج ، فأتى به حين قتل ابن الأشعث فقتله . الأغاني ج ١٨ ص ٥٨-٥٩.

(القعقاع بن شور) من كبار الأمراء في دولة بني امية ، وفيه يقول الشاعر :

وكنت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس

لسان الميزان ج ٤ ص٤٧٤

(دغفـل بن حنظلة) هو دغفل بن حنظلة السدوسي ، أدرك النبي ولم يسمع منه شيئا ، قتلته الأزارقة راجع الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص ٤٧٥.

(عجلان بن سحبان الباهلي) هو سحبان وائل خطيب العرب . البيان والتبيين ج١ ص ٤٨.

ممـــا تقــدم يظهــر أن الجــاحظ كان ذا ثقافة أدبيّة واسعة ، فقد قدم أثباتاً مهمة باسماء الخطباء العرب في الجاهلية والإسلام أو من معاصريهوهذا ما نجده في كتابه البيان والتبيين ، وقد جعلته ثقافته أيضاً يحدد صفات كلام الخطيب كما سنرى.

وفـــي مواضع أخرى من كتابه البيان والتبيين يستطرد فيذكر أسماء للخطباء مع ترجمة بسيطة لبعضهم وممن ذكرهم: الفضل بن عيسى الرقاشي، وقس بن ساعدة وهو من خطباء إياد، وسـعيد بــن العاصي بن أميّة، وسهيل بن عمرو الأعلم، وعبد الله بن عروة بن الزبير، ومنهم معلــل بــن خالد أحد بني أنمار بن الهجم، وعمرو بن خولة، ومحمد جعفر بن حفص، وذكر من خطــباء العــرب عطارد بن حاجب بن زرارة، وكان الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم، وعــبد الله بــن عــباس وداود بــن علي، وعبد الله بن الحسن، وجعفر بن حسن بن الحسن بن علي..إلخ[1].*

وضمن الحديث عن خطباء العرب، أشار الجاحظ إلى وجود بعض النساء الخطيبات في عــصر مـــا قبل الإسلام، وذكر منهن : هند بنت الخُسّ، وجمُعة بنتُ حابس، وهما خطيبتان من إيــاد، وقد وصفهما الجاحظ بقوله: "ومن أهل الدَّهاء والنّكرَاء، ومن أهل اللّسَن واللقَن، والجواب العجــيب والكلام الفصيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة: هندُ بنت الخُسّ وهي الزرقاء، وجُمعــةُ بنت حابس، ويقال إن حابساً من إياد"[2]. وقد أورد الجاحظ شيئاً من كلامهما، ومثال ما يروى على لسان هذه الشخصيات: قال الجاحظ: "وقال عامر بن عبد الله الفزاريّ: جُمع بين هند وجُمعــة، فقيل لجمعة: أيُّ الرجال أحبُّ إليك؟ فقالت: "الشّنق الكتد، الظاهر الجَلد، الشديدُ الجذب بالمسدِ" وقيل لهند: أيُّ الرجال أحبَ إليك؟ قالت: "القريب الآمد، الواسع البلد، الذي يُوفد إليه ولا يفد"[3].

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٣٠٦-٣٣٤.

- (سـعيد بن العاص بن امية) هو ابو عثمان سعيد بن العاصبن امية بن عبد شمس القرشي الأموي ، كان ممن ندبه عثمان لكتابة القرآن ، توفي في قصره بالعقيق سنة٥٣هـ . الاصابة في تمييز الصحابة ج٢ ص ٤٧ .

(عطارد بن حاجب) وفد على النبي عليه السلام واستعمله على صدقات بني تميم . الإصابة في تمييز الصحابة ج٣ص٤٨٤.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ج١، ص٣١٢.

(٣) المصدر نفسه ، ج١، ص٣١٢ وانظر أقوالا أخرى لها في: المصدر نفسه ،ج١،ص١٦٢-١٦٣.

وقد أشار الجاحظ إلى بعض أنواع الخطابة، وأشار إلى بعض النماذج عنها، ومن هذه الأنواع نوع من الخطابة الاجتماعية، كان يسمى قبل الإسلام (خطب النساء)، وسمي في الإسلام خطب النكاح.

وقد ذكر الجاحظ بعضاً من تقاليد هذا النوع ومنها: أن يطيل الخاطب في خطبته، وأن يقصرّ المجيب، وأن يخطب جالساً[١]، ومثال هذا النوع: خطبة قريش قبل الإسلام، وفيها يقول: "قال: وكانت خطبة قريش في الجاهلية- يعني خطبة النساء- "باسمك اللهم، ذكرت فلانة وفلان بها شغوف، باسمك اللهم، لك ما سألت ولنا ما أعطيت"[٢].

ونوع آخر من أنواع الخطابة التي ذكرها الجاحظ، خطب الوعظ، وقد أورد أمثلة عليها: ومنها خطبة لقس بن ساعدة الإيادي[٣].

والنوع الثالث من أنواع الخطابة التي ذكرها الجاحظ (خطب المخاصمة أو المنافرة، وهي نوع من المفاخرة بالأحساب ومثالها: منافرة بين خالد بن مالك النهشلي ، والقعقاع بن معبد ابن زرارة[٤].

وقد تحدث الجاحظ عن الألقاب التي تطلق على بعض الخطب كقولهم: إن الخطبة التي لم تبتدئ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد تسمى "البتراء"، والتي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي تدعى "الشوهاء"، وفي هذا يقول: "وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتمجيد "البتراء"، ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي " الشوهاء "[٥] "، وذكر أمثلة على تلك الخطب، ثم يقسم هذه الخطب إلى قسمين: الطوال والقصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه، أما الطوال فمنها ما يكون عالي الجودة، ومشاكلا في استواء الصنعة، ومنها ما يكون فقرا حساناً، ونتفاً جياداً، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما يكون لها التخليد في بطون الصحف، أما الخطب القصار فعددها كثير، ورواة العلم إلى حفظها أسرع، كما قسمّ الخطب أيضاً إلى خطب مدرية وخطب وبرية، وفي هذا يقول: "ثم أعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين منها: الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومنها ذوات الفقر

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج١، ص١١٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٦.

الحســـان والنتف الجياد، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما حظها التخليد في بطون الصحف، ووجدنا عدداً من القصار أكثر رواة العلم إلى حفظها أسرع...إلخ[١].

ولم يفت الجاحظ الحديث عن بعض العيوب الجسمية في الخطباء، وفي ذلك يقول: "في الخطــباء مــن كان أشغى، ومن كان اشدق، ومن كان أروق، ومن كان أضجم، ومن كان أفقم، القراسية بعير أضجم والضجم اعوجاج في الفم، والفقم مثله والروق ركوب السن الشفة"[٢]. وقد ذكــر في هذا الموضع ما رواه الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير فما رأيت خصلة تذم في رجل إلا وقــد رأيتها فيه كان "صعل الرأس، أحجن الأنف، أغضف الأذن، متراكب الأسنان، أشدق مائل الذقــن، ناتــئ الوجنه، باخق العين، خفيف العارضين أحنف الرجلين، ولكنه إذا تكلم جلى عن نفسه، ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضاً لمنعه"[٣].*

ولم يغفل الحديث عن حركة الخطيب وسكونه أثناء الخطابة، وفي هذا يورد ما رواه أبو شَــمِر عن مُعمّر أبي الأشعث في الإشارة والحركة عن الخطابة وعند منازعة الرجال ومناقلة الأكفاء فيقول: "وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه، ولا منكبيه، ولم يقلّب عينيه ،ولم يحرك رأســه، حــتى كــأنّ كلامه إنما يخرج من صدع صخرة، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغــيره، حتى كلّمه إبراهيمُ بن سيّار النظام عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة وبالزيادة في المسألة ،حتى حرّك يديه وحلّ حُبوَتَه وحبا إليه حتى أخذ بيديه"[٤].

بعــد هذه الإطلالة نجد أن الجاحظ كان ناقداً عارفاً بتاريخ الفن الخطابي وأبرز أعلامه وحــيواتهم، وكان مطلعاً على مواقفهم الخطابية، ووضع في سبيل ذلك أنظاره النقدية في معرفة عــيوب كــلام الخطيب، وما ينبغي أن يتوافر فيه من شروط لإنجاح خطبته، وقدم لنا الجاحظ نماذج رفيعة متميزة من الفن الخطابي، مما يدل على حسن اختياره وملكته الأدبيّة في الاختيار.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج٢، ص٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢.

* الشغا: اختلاف أنبتة الأسنان في الطول والقصر والدخول والخروج، صعل: دقيق، أحجن: معوّج ومنه المحجن، أغضف: في أذنه استرخاء، باخق: أعور، أحنف: معوج.

(٣) المصدر نفسه ، ج١، ص٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٩١.

ثانياً: الأمثال:

ضـــرب الجـــاحظ بسهم وافر في استعمال المثل بوصفه مادة أدبية تسهم في إثراء فنه، وتـــزيد من الإمتاع بما يقول أو يصور، ومن الواضح أنه حرص على أن ينشرها في كثير من كـــتاباته، فقـــد أدرك الجـــاحظ أهمية وظيفة الأمثال، والتي تكمن بتنميق كل تعبير لفظي على المستويين: الشعبي والأدبي، والناظر في كتابات الجاحظ يجد عدداً هائلاً من الأمثال التي ذكرها غالباً مجردة من قصتها، وأحياناً مع القصة التي وردت لتفسيرها، ومما ينبغي ذكره أن للجاحظ كتاباً في الأمثال فقد ولم يصل إلينا.

ولـــم يحاول الجاحظ تحديد مدلول المثل، كما أنه لم يحاول تحديد زمن المثل والعصر الذي قيل فيه المثل، ومما يلحظ أيضاً أن كثيراً من قصص المثل واضحة الافتعال، وقد وضعت لتفسير سبب قول المثل، وعلى الرغم من ذلك فإن استعمال الجاحظ للمثل وتوظيفه في أدبه دليل جلي على ثقافته الأدبيّة.

والحقـــيقة أن الجاحظ يثبت أن للعرب قدرة على صوغ المثل وإيراده، فيقول: "وقد كان الـــرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدّة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع"[١].

ويمكن تقسيم الأمثال التي استعملها الجاحظ من حيث أنواعها إلى:

١- **المثل الموجز:** وهو ما جلّ معناه وقصر مبناه، وقد جاءت معظم الأمثال في كتاب الحـــيوان من هذا النوع[٢]، كقولهم: "جاء بما صأى وصمت"[٣]، وقولهم "ما هو إلا تـــيس فـــي سفينة"[٤]، ويندرج تحت هذا النوع الأمثال الشعرية، سواء أكان البيت كاملاً أم متجزءاً، قال طرفة:

وَصَاحِبٍ قَدْ كُنْتَ صَاحِبْتُـــهُ لا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَـــهْ

كُلُهُمْ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَـــبٍ مَا أشْبَهَ اللَيْلَةَ بِالبَارِحَهْ[٥]

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٣٧١.

(٢) عبد المجيد قطامش ، الأمثال العربية : دراسة تاريخية تحليلية ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م، ص ٣٣ .

(٣) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٣.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج٢ ص١٥٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٦، ص٣٠٢.

٢- **المـــثل القياســـي:** وهـــو سرد قصصي أو وصفي، إما أن يصور نموذجاً للسلوك الإنـــساني بقصد التأديب أو التمثيل أو التوضيح، وإما أن يجسد مبدأ يتعلق بملكوت الله ومخلـــوقاته[١]، ومثال ذلك: قولهم "كالكلب يربض في الأري، فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعتلف"[٢].

٣- **المـــثل الحكمـــي:** وهذه الأمثال تحمل تجربة في طياتها حكمة في معانيها، ويمكن إدخالهـــا فـــي بـــاب الحِكَـــم، ومما جاء منها في كتابات الجاحظ "لولا الوئام لهلك الأنام"[٣]، و"إن الحب يعمي ويصم"[٤].

٤- **المـــثل الخرافي:** وهو الكلمات الموجزة التي أجراها العرب على ألسنة الحيوان أو بنوها على قصص خرافي نسجوه حوله بقصد التسليّة والفكاهة، والحث على مكارم الأخلاق، وأطلق عليه اللغويون أكاذيب العرب، ورموز العرب[٥].

ومن الأمثال التي أجروها على ألسنة الحيوان في خطاب بينها قول الجاحظ: "وفي المثل أن شيخاً نصب للعصافير فخاً، فارتبن به وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخ وقدانضم على عصفور، فقبض عليه ودق جناحه وألقاه في وعائه، دَمعت عينُه مما كان يصُكّ وجهه من برد الشمال، قال: فتآمرت العصافير بأمره، وقلن: لا بـــأس عليكن، فإنه شيخ صالح رحيم رقيق الدمعة! فقال عصفور منها: لا تنظروا إلى دموع عينيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه!"[٦].

٥- **الأمـــثال الـــشعبية:** وهي تلك الأمثال التي صيغت بأسلوب العوام من الناس، ومن ذلك يقول الجاحظ "والعامة تقول: أهون عليّ من الأعراب على عركوك"[٧].

وأخيـــراً فإنّ استعمال الجاحظ للأمثال في كتبه دليل على ثقافته وإطلاعه الواسع على هذا الضرب من ضروب الأدب العربي.

---

(١) عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، مرجع سابق، ص ٣٤.
(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٩١.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤١.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٨٦.
(٥) عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، مرجع سابق ، ص٣٤.
(٦) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٥، ص٢٣٨- ٢٣٩.
(٧) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٣.

ثالثاً: الرسائل:

كـتب الجاحظ رسائل كثيرة تعددت أغراضها، وتركت أثرها الكبير في الأدب العربي ومـنها: رسـائل فـي الهجاء، كرسالة التربيع والتدوير: وهي رسالة في هجاء أحمد بن عبد الـوهاب، أفـرغ فيها ألواناً من المعارف والثقافات، فقد كان أحمد هذا مفرط القصر يدّعي أنه مفرط الطول، وكان مربعاً جعد الأطراف، قصير الأصابع، معتدل القامة، وكان ادّعاوه لأصناف العلم على قدر جهله بها"، ومما قاله أبو عثمان في قذعه: "أنه يعدّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ويجسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلى الانتحال لاسم الأدب".

وفـي هـذه الرسـالة يـستند الجـاحظ إلى الكتب المقدسة بوجه عام، وتاريخ العرب والأسـاطير الـشائعة وما اتصل به من علوم الهند وفارس واليونان، وبذلك يظهر سعة ثقافته، وتعد هذه الرسالة، بالإضافة إلى أنها معرض شامل لمختلف العلوم حسبما انتهت إليه في عصر الجاحظ، فإنّها تنطوي على طريقة فنيّة في السخرية لا تجارى.

ومنها رسالة في بني أمية: وفيها هجاء للأمويين يمتدح فيها الخلفاء الأولين، ويحاول أن يبـرهن إلـى أن الإسـلام لم يعرف حقداً ولا حسداً قبل عهد الأمويين الذين اغتصبوا الخلافة اغتصاباً وحكموا حكم الطغاة من وجهة نظره(١).

ولـه رسـالة في هجاء شخص معاصر له(٢): فارق فيها بينه وبين خصمه على سبيل الفخر والسخرية، وهذه الرسالة كانت من نتاجه في المدة الأخيرة من حياته حين أقعده المرض، وأصبح لا يملك سوى قلم يذود به عن وجه الطاغين.

"وله رسائل في الحب والحسد والمرأة، ومنها رسالة القيان: وهي دراسة نفسانية عميقة حول الحب والحسد والمرأة بوجه عام والقينة بوجه خاص، تظهر أهمية النساء في حياة الرجال، ويُعـدِّد فـيها أشهر حسناوات العرب، ويبين مختلف النواحي التي تميز المرأة الحرّة من الأمة، ويتطرق إلى الغناء واللذات التي توفرها الجواري والمغنيات اللواتي كُنّ يعرفن بالقيان، ويتميز أسلوب هذه الرسالة بالبراعة في التصوير والاستنتاج.

وهـناك رسالة في النساء: وهذه أيضاً تعرض لمختلف وجهات النظر في تحليل الحب وأهمـية المـرأة فـي المجتمع، وتتضمن لائحة بطرق التزين التي يلجأ الرجال إليها لاستمالة

---

(١) جميل جبر ، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م ، ص ٥٣-٥٤و٦٣

(٢) محمـد محمـود الدروبـي، رسالة جديدة للجاحظ في الهجاء، مجلة المنارة، المجلد الرابع، العدد الثالث، المفرق، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٨٥- ٨٧.

النساء، ومجموعة كبيرة من القصائد الغزلية التي أوحاها الحب، ويدافع المؤلف فيها عن حقوق المرأة ويعلن مساواتها للرجل.

ولـــه رسائل في المدح، ومنها رسالة في مدح النبيذ والشارب والمشروب:وفيها يمتدح الجاحظ في أولاهما الخمر، ويخلص إلى القول إنه يُفرح الأنسان ويعزز معنوياته ويساعد على جمع شمل الخلان، وفي الثانية يعرض لأنواع الخمر وخصائصها وما قيل فيها، وما هو المحرم منها وما هو الحلال.

ولـــه رسالة فخر السودان على البيضان:وهي تتضمن عرضاً تاريخياً مختصراً للزنوج السود وأعلامهم منذ لقمان الحكيم حتى عنترة العبسي، مورداً خصائصهم ومفاخرهم، وقد حاول الجاحظ أن يُعلي من شأن هؤلاء بكل وسيلة.

وأيضاً له رسالة استحقاق الإمامة: وهي رسالة يتناول فيها الشيعة في فرعيها: الزيديّة والرافضة، وتحفل بحجج الزيديين التي تؤيد الإمام علي وتبرهن على أفضليته."(١)

ومـــن رسائله رسالة فصل ما بين العداوة والحسد،و رسالة في مناقب الترك،و رسالة فضل هاشم على عبد شمس ... وغيرها كثير .

إن هذا الإنتاج الحافل الذي صاغه الجاحظ بقلمه يدل على تمكنه من الفن الكتابي تمكناً شـــديداً، ويفـــتح الأعـــين على سعة معرفته بأصول الكتابة الأدبيّة والإنشاء، وما استجمعته من قـــدرات فنـــيّة هائلـــة في صناعة الترسل، وأدوات لغويّة وتعبيريّة وأدبيّة مكنته من الكتابة في موضـــوعات سياسيّة واجتماعيّة وأدبيّة ...إلخ، ولا غَرو، فالجاحظ صاحب أسلوب أدبي، وهو شـــيخ طـــريقة فـــي الكـــتابة، وما هذا الإنتاج من الرسائل إلا دليل على رسوخ ثقافته الأدبيّة، ومعـــرفته الدقـــيقة بأصول الترسل، وقدرته من بعد على تطوير هذه الصنعة والخروج بها إلى واقع الحياة.

---

(١) جميل جبر ، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ،مرجع سابق ، ص٥٨-٦٣.

رابعاً: الوصايا:

لم يغفل الجاحظ عن أهمية الوصايا في إثراء أدبه، ولهذا نجده قد عرض لمجموعة كبيرة في طيات كتبه، ومنها وصية عبد الملك للوليدَ – ومخالفته فيما أوصاه أبو نخيلة– في معنى قوله تعالى **﴿وكذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أمَّةً وَسَطًا﴾**[(١)][(٢)]، ووصية معاوية لابنه وقد حضرته الوفاة، ووصية لقمان لابنه وهوَ يعظه[(٣)]، وغيرها، ومن الوصايا التي حظيت باهتمام الجاحظ: وصية قيس بن عاصم لبنيه حينما حضرته الوفاة، فقال لهم: "يا بنيّ، احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، إذا متُ فسوّدوا كباركم، ولا تسوّدوا صغاركم، فيسفه الناس كباركم، وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاح المال فإن منهجه للكريم، ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس، فإنها شر كسب المرء"[(٤)].

كما يورد وصية أم توصي ابنتها بوصايا، منها: "وليكن أطيب طيبك الماء"[(٥)]، ونستمر مع الجاحظ في الوصايا التي ساقها، حتى نصل إلى رجل يُوصي ابنه بقوله: "أيْ بُنيّ، إني مؤد إليك حق الله في تأديبك، فأدّ إلى حقّ الله في حسن الاستماع، أيْ بنيّ، كُف الأذى، وارفض البذاء، واستعن على الكلام بطول الفِكر، في المواطن التي تدعوك فيها نفسها إلى القول، فإنّ للقول ساعات يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب، واحذر مشورة الجاهل، وإنْ كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًا"[(٦)].

وقد كتب الجاحظ عدداً من الرسائل التي تجري مجرى الوصايا، ومن الوصايا الطريفة ما كتبه إلى أحد أصحابه، وأوصاه بالحلم والأناة، والعفو عن المسيء، وفيها يقول: "عليك بالأناة فإنك على إيقاع ما أنت موقعه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعته"[(٧)].

ومنها أيضاً: "ما ورد في رسالة في الأخلاق المذمومة و المحمودة، فقد حظيت هذه الرسالة بوصايا كثيرة، يقول الجاحظ منها: "فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله، فإنها جماع كل خير وسبب كل نجاة ولقاح كل رشد، هي أحرز حرز أقوى معين وأمنع جُنّة، هي الجامعة

---

(١) سورة البقرة، آية ١٤٣.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج٣، ص١١٥.

(٣) المصدر نفسه ، ج٢، ص ١٤٩،٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٩-٨٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٢،ص٨١.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣٢.

(٧) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٢.

محبة قلوب العباد والمستقبلة بك محبة قلوب من لا تجري عليهم نعمك، فاجعلها عدتك وسلاحك، واجعـل أمرالله ونهيه نصب، وأحذرك ونفسي الله والاغترار به والإدهان في أمره والاستهانة بعـزائمه والأمـن المكره فقد رأيت آثاره في أهل ولايته وعداوته كيف جعلهم للماضين عبرة وللغابرين مثلاً، واعلم أن خلقه كلهم بريتهُ ولا وصلة بينه وبين أحد منهم إلا بالطاعة فأولاهم به أكثرهم تزيداً في طاعته وما خالف هذا فإنه أماني وغرور، وقد مكنّ الله لك من أسباب المقدرة ومهـد لك في تمكين الغنى والبسطة ما لم تنحله بحيلة ولا بلغته بقوة لولا فضله وطوله، ولكنه مكـنك ليـبلوا خبرك ويختبر شكرك ويحصي سعيك ويكتب أثرك ثم يوفيك أجرك ويأخذك بما احتـرفت يديك أو يعفو فأهل العفو هو، ولله ابتلاءان في خلقه- والابتلاء هو الاختبار- ابتلاء بـنعمه، وابتلاء بمعصية، وبقدر عظمها يجب التكليف من الله عليها فبقدر ما خولك من النعمة يستأذنك الشكر، ولو تقصى الله على خلقه لعذبهم ولذلك قال تعالى :**﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَـسَبُوا مَـا تَـرَكَ عَلَـى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾**[١] ولكنه قبِلَ التوبة وأقال العثرة وجعل الحسنة أضـعافها، وأعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا: ميزان قسط وحكم عدل، وقد قال الله تعالى: **﴿فَمَنْ ثَقُلَت مَوَازِينُه فَأُولئِكَ هُمْ المُفْلِحُون﴾**[٢] إلى أن يقول: وإنما الأمور بعواقبها وإنما يُقـضى كـل امـرئ بما شاكل أحواله، فهذه الأمور قائمة جرت عليها المعاملة واستقامت بها السياسة لا اختلاف بين الأمة فيها، فلا تغبن حظك من دينك، وإن استطعت أن تبلغ من الطاعة غايـتها فلنفسك تمهّد وإلا فاجهد أن يكون أغلب أفعالك عليك بالطاعة مع الندامة عند الإساءة، ويكون ميلك عند الإساءة إلى الله أكثر، والله يوفقك"[٣].

ممـا تقـدم يتبين أن الجاحظ كان عارفاً بفن الوصايا وأبرز أعلامه، فقد قدّم لنا نماذج رفـيعة متخيرة من الوصايا، مما يدل على حسن اختياره وملكته الأدبيّة في الاختيار، ومعرفته في هذا الفن جعلته يكتب وصايا خُلقيّة تجرى مجراه.

---

(١) سورة فاطر ، آية ٤٥ .

(٢) سورة الأعراف، آية ٨.

(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٢.

خامساً: القصص:

كـــان أدب الجاحظ – وما يزال– غذاءً فكرياً للكثير من الناس، فلم يترك موضوعاً في عصره إلا كتب فيه، ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا صوّره، وقد كتب في القصة روائع، لا نجـد لهـا شـبيهاً فـي كتب العرب من قبله، فقد أكمل في قصصه جميع عناصر القصة: من الشخصية والحادثة والزمان والمكان والسرد والبناء وصوّر الحياة تصويراً جديداً ساحراً، ومن تلك النماذج القصصية التي حاول الجاحظ من خلالها أن يقترب من مستوى "القصة القصيرة" في الوقت الحاضر، قصة أهل البصرة من المسجديين.(١)

وقـد وظف الجاحظ " القصة في أدبه، لتكون مستراحاً وجماماً من عناء البحث الجاد، وراحـــة يفيء إليها القارئ بين حين وآخر، كي يرّوح عن النفس ويجدد الحماسة والنشاط، وهذا مـــا جعله ينأى بها عن دواعي الجد والكآبة، ويوفر لها أسباب الضحك والمرح، وهو في سبيل هـــذه الغايـــة المقصودة، لا تهمه الوسيلة، حتى إنه أحياناً يشعر أنه تسخف في مضمون بعض الحكايـــات، وحينـــئذ نــــراه يعتذر لغايته التي يقصد إليها" (٢)، نحو قوله إثر سرد حكايات ذات مضامين مكشوفة : "وقد تسخفنا في هذه الأحاديث، واستجزنا ذلك بما تقدم من العذر"(٣)، أو نحو قوله في كتاب مفاخرة الجواري والغلمان يبرّر سرده حكايات جنسية جرئية: "وقد ذكرنا في آخر كتابـــنا هـــذا مقتطعات من أحاديث الباطلين والظرفاء، ليزيد القارئ لهذا الكتاب نشاطاً، ويذهب عنه الفتور والكلال، ولا وقوة إلا بالله"(٤)، بيّد أن هذا لا يعني البتة أن الجاحظ كان يضع حكاياته خصيـــصاً من أجل الدور الذي تؤديه في أدبه، فهي لدى دراستها والتمعن فيها تبدو لا يعتورها فـــي الغالـــب أي تكلـــف لغايـــة، وإنما هي إستجابة طبيعية لإلحاح الموهبة القصصية الحقة، والحكايات التي تمثل جانب القصة في أدب الجاحظ يمكن تقسيمها إلى أنواع، وهي كالآتي:

النوع الأول:

وهـــو الـــذي يقـــوم على ذكر بعض الحكايات التي لا يتبع بعضها البعض في تسلسل واضـــح، وهذا النوع وإن كان الجاحظ يطلق على عنوانه العام "قصة"، فإنه رغم توفر عنصر

---

(١) محمد رضا خضري ، الواقعية في أدب الجاحظ واسلوبه ،رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ص ٣٣٤.

(٢) توفـــيق أبو الرُب، الحكاية في أدب الجاحظ، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، ١٤٠٤هـــ/ ١٩٨٤م، ص٣٧.

(٣) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص٣٨.

(٤) الجـــاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، ت٢٥٥هـــ/٨٦٩م ، رسائل الجاحظ ، تحقيق شارل بلا،مكتبة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧٤هـــ/١٩٥٥م ،ج٣، ص٥٦.

الأسلوب القصصي له، فإنه يخلو من بعض العناصر الفنيّة التي راعاها الجاحظ في بعض حكاياته.. كالذروة.. والحل، بل إن الجاحظ قد يضمنه بعض الأحاديث العادية والأشعار، إلا أنه يبرز من خلالها تحليلاً متعلقاً بالبخل ونفسيات البخلاء، وهذا النوع من أكبر الأنواع من حيث الحجم والطول[١]، ويمكن القول بأنه أقل الأنواع من حيث المستوى الفنيّ.

ومن القصص التي ينطبق عليها هذا الكلام "قصة تمام بن جعفر"[٢]:

"كان تمام بن جعفر بخيلاً على الطعام مفرط البخل، وكان يقبل على كل مَنْ أكل خبزه بكل علة، ويطالبه بكل طائلة، وحتى ربما استخرج عليه أنه لابن جلاّد الدم.

وكان إن قال له نديم: ما في الأرض أحدٌ أمشَى منّي، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحُضر منّي، قال: وما يمنعُك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة؟ وهل يحمل الرجلَ إلا البطنُ؟ لا حمد الله من يحمدك. فإن قال: لا والله إن أقدر أن أمشي، لأني أضعف الخلق عنه، وإني لأنبهر من مشي ثلاثين خطوة، قال: وكيف تمشي، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالاً؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأي بطين يقدر على الحركة؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود، فكيف بالمشي الكثير؟

فإن شكا ضرسه، قال: ما نمت البارحة مع وجعه وضربانه ، قال: عجبت كيف اشتكيت واحداً، وكيف لم تشتكِ الجميع؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكة؟ وأي ضرس يقوى على الضرس والطحن؟ والله إن الارحاء السورية لتكل، وإن الميجانَ الغليظ ليتعبه الدق، ولقد استبطأت لك هذه العلة ... إلخ[٣].

النوع الثاني:

وهو الذي يمثل طابع القصة في أدب الجاحظ إلى حد كبير، وهو نوع "الحكاية" المتطورة فنياً، ويمثل هذا النوع بعض قصص الجاحظ ومنها هذه القصص المختارة.

حكاية: رجل بخيل وديناره.

"وحديث سمعناه على وجه الدهر، زعموا أن رجلاً قد بلغ في البخل غايته وصار إماماً، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم، خاطبه وناجاه وفداه، واستبطأه. وكان مما يقول له: "كم من

---

(١) عبد الله أحمد باقازي، القصة في أدب الجاحظ، الطبعة الأولى، تهامة للنشر ، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٧٤- ٧٥.

(٢) الجاحظ، البخلاء، مصدر سابق، ص١٠٤و ١٠٥.

(٣) الجاحظ، البخلاء، مصدر سابق، ص ١٠٥.

أرض قـد قطعـت، وكم من كيس قد فارقتَ، وكم من خامل رفعت، ومن رفيع قد اخملت، لك عندي ألا تعرى، ولا تضحى، ثم يلقيه في كيسه ويقول له: اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تـذل ولا تزعج منه، وأنه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه. وإن أهله ألحوا عليه في شهوة وأكثـروا عليه في إنفاق درهم، فدافعهم ما أمكن ذلك. ثم حمل درهماً فقط، فبينما هو ذاهب إذ رأى حـوّاء، قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه، فقال في نفسه: اتلف شيئاً تبذل فيه النفس بأكله أو شربه؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله، فرجع إلى أهله ورد الدرهم إلى كيسه فكان منه في بلاء، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت والحياة بدونه.

فما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه، قدم ابنه، فاستولى على ماله وداره، ثم قال: "ما كان أدمُ أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام" قالوا: "كان يتأدم بجبنه عنده" قال: "ارونيها". فـإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة. قال: "ما هذه الحفرة"؟ قالوا: "كان لا يقطع الجبن، وإنما يمسح على ظهره. فيحفر كما ترى" قال: "فهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد، لو علمت ذلك ما صليت عليه".

قالوا: "فأنت كيف تريد أن تصنع"؟ قال: "أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة""[1].

فـالملاحظ مـن هـذه القصة أن الجاحظ قد حرص على توفير عناصر الإثارة الفنيّة والتـشويق الـدائم للقارئ، وقد توفرت بعض العناصر الفنيّة للقصة ومنها الشخوص، والمكان المتمـثل فـي المظاهر الاجتماعيّة: كالتقتير على أهل البيت، ومنظر الحواء- وهو الذي يجمع الحيات ويتخذها سبيلاً للرزق- والذروة وهي المنعطف الحساس الذي تأزمت فيه الحكاية عندما سأل الابن عن طعام أبيه المتوفى، وأخيرا الحل وهو الذي صاغه الجاحظ ببراعة من خلال آخر جملة في الحكاية[2]:

- قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟
- قال: أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة؟

وأما النوع الثالث:

فهو الحكاية التي تقترب من النادرة في إيجازها الشديد، ومن أمثلته:

- نادرة إسماعيل بن غزوان والشيخ:

"قال المكي: دخل إسماعيل بن غزوان إلى بعض المساجد يصلي فوجد الصف تاماً، فلم يستطع أن يقوم وحده، فجذب ثوب شيخ في الصف ليتأخر، فيقوم معه، فلما تأخر الشيخ، ورأى

---

(١) الجاحظ ، البخلاء ، مصدر سابق ، ص ١١٩.

(٢) عبد الله أحمد باقازي ، القصة في أدب الجاحظ ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

إسـماعيل الفـرج، تقدم فقام في موقع الشيخ، وترك الشيخ قائماً خلفه ينظر في قفاه، ويدعو الله عليه"(١).

- نادرة تزامل خراسانيّة:

"وزعـم أصحابنا أن خراسانيّة ترافقوا في منزل، وصبروا على الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر، ثم أنهم تناهدوا وتخارجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في الغرم معهم، فكانـوا إذا جاء المصباح شدوا عينه بمنديل ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا، ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤوه أطلقوا عينيه"(٢).

وهـذا الـنوع من الحكايات القصيرة يقترب مما يدعى - في وقتنا الحاضر- "بالنكتة القـصيرة"، وهـذا النوع يخلو من العناصر الفنيّة للقصة إلا أنه يحتوي إلى حد ما على عنصر الحل في النهاية.

ونستـشف من ذلك جملة أن الجاحظ كان عارفاً بفن الحكايات، فمن خلال هذا الإنتاج الحافل من الحكايات التي صاغها الجاحظ بقلمه نتبين تمكنه من الفن القصصي تمكناً شديداً، وما هـذا الإنتاج إلا دليل على رسوخ ثقافته الأدبيّة، وقدرته على توظيف هذا الفن في كتاباته خير توظـيف، والملاحـظ أن حكاياتـه كانـت راصدة للظواهر الاجتماعية، ناقلة إياها بمسحتها التاريخـيّة، فقـد كـان الجاحظ يسمي بعض الأماكن بأسمائها كما يذكر كثيراً من الشخصيات المعـروفة، ولا أقصد من هذا أن الجاحظ اقتصر على النقل الآلي لهذه المظاهر الاجتماعيّة، بل نقلهـا إلـى مستوى الصدق الفني، مؤكداً أن الصدق المطلوب للأديب ليس الصدق الواقعي أو التاريخي في نقل الأحداث، بل الصدق الفني والشعور الصادق.

---

(١) الجاحظ ،البخلاء ، ص١٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤.

الفصـــل الثانـي: ثقافتـــه النقديّة

المبحث الأول: ثقافته البلاغيّة.

المبحث الثاني:ثقافته النقديّة.

المبحث الأول : ثقافته البلاغية:

وقف الجاحظ بمعرفته الواسعة في علوم البلاغة عند كثير من القضايا البلاغية وخاض فيها، وحاول أن يضع لها حدوداً ورسوماً، ولعله كان أسبق البلاغيين العرب إلى مناقشة بعض القضــايا المهمة التي نستشف منها ثبات قدمه ورسوخ معرفته وعمق ثقافته في العلوم البلاغية بفضل قراءاته الواسعة ومجالسته الشيوخ ومجاذبته أساتيذ الاعتزال.

مفهوم البلاغة والبيان:

جمع الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كل الأقوال التي وردت عن البلاغة والبيان، وكل مـــا قـــرأه في بعض الأوراق من التعريفات والمعاني البلاغيّة: كالصحيفة الهنديّة وعقب على بعضها بملاحظات شخصيّة، وحللها مبيناً الوجوه البلاغيّة، إلا أنه لم يبين تعريفاً خاصاً، ولم ينقد تعـــريفاً من هذه التعريفات فبدأ الكتاب خالياً من تعريف منهجي عام للبلاغة وجاءت التعريفات والملاحظات بسيطة موجزة، تقتصر على وجهة دون غيرها أو ناقصة مبهمة.

يقـــول الجـــاحظ في تعريف البلاغة: "قيل للفارسي ما البلاغة، قال: معرفة الفصل من الوصـــل، وقـــيل لليوناني ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للرومي :ما البلاغة؟ قال: حُسن الاقتضاب عند البداهة،والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي :ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة ،والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تـــدع الإفصـــاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة وربما كان الإضراب عنها صـــفحا أبلـــغَ في الدَّرَك، وأحقَّ بالظفَر. قال : وقال مرة: جماع البلاغة التماسُ حسن الموقع، والمعـــرفة بساعات القول، وقلة الخَرَقِ بما التبس من المعاني أو غَمُض، وبما شَرَد عليك من اللفـــظ أو تعـــذّر ثم قال: وزينُ ذلك كلّه وبهاؤه ،وحلاوته، وسناؤه، أن تكون الشمائلُ موزونة، والألفـــاظ معدّلة، واللهجة نقية، فإن جامَعَ ذلك السِّنُّ، والسمت، والجمال، وطول الصمت فقد تمّ كلَّ التمام، وكملَ كلَّ الكمال"(١).

ممـــا تقـــدم يظهر أن الجاحظ جمع الأقوال التي وردت عن البلاغة عند الروم والفرس والهـــنود وغـــيرهم، وهذا يدل على سعة ثقافته، فقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المـــترجمة، وعن طريق المتكلمين، وبمجالسته لكثير من المثقفين اليونان، كما أنه حذق الثقافة

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٨٨-٨٩.

المتــرجمة، وعن طريق المتكلمين، وبمجالسته لكثير من المثقفين اليونان، كما أنه حذق الثقافة الفارســيّة من كتب ابن المقفع وسواه، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد.

ويــورد الجــاحظ قول لعَمرو بن عُبيد في البلاغة يقول فيه للسائل : " فكأنك إنما تريد تخيّــر اللفظ في حسن الإفهام، قال: نعم، قال: إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المتكلفين وتخفيف المؤنة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحــسنة علــى الكــتاب والــسنة، كنت قد أوتيت فضل الخطاب ،واستوجبت على جزيل الله الثواب"[١].

و يذكر الجاحظ قول العتابي في البلاغة قائلا:" كل ما أفهمك حاجته من غير إعادة و لا حبسة و لا استعانة فهو بليغ " [٢].

و قد ردّ الجاحظ عليه مصححاً ما قد أوحاه بأن البلاغة هي الإفهام ، و يشرح المعنى غير الواضح في كلامه فيقول: "والعتابي حين زعم أنّ كل ما أفهمك حاجته فهو بليغ لم يَعن أنّ كــل مــن أفهمــنا من معاشر المُولّدين والبلديين قصدَه، ومعناه بالكلام الملحون، والمعدول عن جهــته، والمــصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه، ونحــن قــد فهمــنا كلام النّبطيّ الذي قيل له: لم اشتريتَ هذا الأتان؟ قال: اركبها وتَلِدُ لي. وقد علمــناأن معــناه كان صحيحاً.. فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ، والصواب، والإغلاق، والإبانة، والملحون والمُعرَب ،كلّه سواء، وكلّه بــياناً، وكيف يكون كلّه بياناً، ولولا طول مخالطة السامع للعجم، وسماعه للفاسد من الكلام لما عــرفه ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا، وأهلُ هذه اللغة، وأربابُ هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم"[٣].

ولــم يفــت الجــاحظ أن يذكر تفسير ابن المقفع للبلاغة فيقول: "سئل ما البلاغة، قال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاســتماع، ومــنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومــنها مــا يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ، ج١، ص١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ، ص ١١٣.

(٣) المصدر نفسه ، ج١، ص ص١٦١– ١٦٢.

رسائل، فعامةُ ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها والإشارةُ إلى المعنى، والإيجازُ، هو البلاغة"[١]، فالواضح إن ابن المقفع قد وسّع دائرة البلاغة فجعلها تنتظم وجوهاً كثيرة.

ومن كلام الجاحظ في وصف البلاغة: "ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه و أعرب عن فحواه لتلك الحال وفقا، ولذلك القدر لفقا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قميناً بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين، وألا تزالَ القلوب به معمورة، والصدور به مأهولة، متى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه، متخيراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول، برئياً من التقعيد، حُبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادةً للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الرّيض،... ومن أعاره الله من معونته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا، جلب إليه المعاني، وسلس له نظام اللفظ، وكان قد أعطى المستمع عن كدِّ التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم"[٢].

ويقول الجاحظ أيضاً: "وقال بعضهم وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[٣].

من تأييده لهذا الرأي في البلاغة نصل إلى رأيه فيها، فهو يرى أن البلاغة في النظم الأدبي و المعاني أيضاً وفي هذا يقول: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك"[٤].

"وقد شغلت الجاحظ عند الكلام على البلاغة دراسة الألفاظ والمعاني التي استغرقت جزءاً كبيراً من دراسته في آثاره المختلفة- تقدم الحديث عنها في المبحث السابق- وهو إن كان قد أشار إلى بعض مصطلحات البلاغة الدقيقة مثل الاستعارة، والكناية..الخ، إلا أنه قد غلب عليه بالدرجة الأولى الكلام على الألفاظ والمعاني، وحين كان الكلام في البلاغة يهدف إلى الجانب العلمي من هذا العلم في سبيل خدمة المستمعين، فإنه لذلك اهتم باللفظ السهل الذي يدور

---

(١) الجاحظ، البيان و التبين، مصدر سابق ، ج١، ص٦٤.

(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ص٧ -٨.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١١٥.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص ١٣١-١٣٢.

في لغة الأديب والشاعر ويفهمه القارئ[١]، وفي هذا يقول: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات،كما أن الناس طبقات، فمن الكلام الجزلُ، والسخيفُ، والمليحُ، والحسنُ، والقبيحُ،والسّمج والخفيفُ، والثقيلّ، وكله عربي"[٢].

وقد وصف الجاحظ العرب بالبداهة والارتجال واتصافها بأصناف البلاغة في قصيدها ورجزها ومنثور كلامها خلاف الفرس، وهذا ما نجده في قوله: "ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنى العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنَّبذ القليل، ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي : أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذا كان مثل: ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السِّير، وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبي، فأدخلته بلاد الأعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذي قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عياناً، فهذا فرق ما بيننا وبينهم"[٣].

وأما البيان فيقول الجاحظ في تعريفه: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[٤].

وقال أبو عثمان في موضع آخر في تعريف البيان: "وقالوا البيان بصر والعِيّ عمى"، كما إن العلم بصر، والجهل عمى، والبيانُ من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل. وقال سهل ابن هارون: العقل رائد الروح والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. وقال صاحب المنطق :

---

(١) داود سلوم ، الجاحظ منهج وفكر، مرجع سابق ، ص١٢٧.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص١٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ، ج٣، ص ص٢٩- ٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٧٦.

حـدّ الإنسان الحيّ الناطق المبين، وقالوا: حياة المروءة الصدق ، وحياة الروح العفاف ، وحياة الحلم العلم وحياة العلم البيان.. الخ"[١].

فقد ذكر الجاحظ رأيه في البيان كما تقدم، ثم شرع في إيراد أقوال العلماء فيه.

خـدم الجاحظ البيان العربي خدمة لا تقدر بالكتابة- في كتبه – في شتى بحوثه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وألوانه، فهو يُعرِّف الاستعارة، ويتكلم على السجع، ويشير إلى الإيجاز والإطناب والمساواة، والاحتراس والكناية والتشبيه والمجاز .. وغيرها كثير، وفيما يأتي إيضاح لكل منهما:

أولاً: الاستعارة:

وهـي وجـه مـن وجوه الصورة البيانية وهي عنده تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامـه[٢]، ويعـرض لتفسـير قولـه تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ**﴾[٣]، فيقول: "والخـزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ، ولا يختار دخولها فيمنع عنها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به" وعلّق على قول الشاعر:

وطفِقتْ سَحَابَةٌ تَغْشَاهَا تَبْكِي عَلَى عِرَاصِهَا عَيْنَاهَا

بقوله: "وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[٤].

وقد اختلط تقدير الجاحظ بالبدل والتشبيه البليغ الذي حذفت فيه الأداة وبألوان أخرى من فـنون القول التي أوردها على أنها استعارة، كتأكيد الذم بما يشبه المدح، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وقد ذكر الجاحظ أمثلة من القرآن الكريم والشعر العربي ومنها قول النابغة:

وَلا عَيْب فِيْهِمْ غَيْرَ أنّ سُيُوفَهُم بِهِنّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِـبِ[٥]

تحدث الجاحظ عن الاستعارة التمثيلية المركبة وعن استعارة النقل من الجنس الى النوع أو من النوع إلى الجنس وفي تحديده لأنواع الاستعارة – بالرغم من نقوله من أرسطو – دلالة واضحة على ثقافته البلاغية .

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ،مصدر سابق ، ج١، ص٧٧.

(٢) المصدر نفسه ،ج١، ص١٥٢.

(٣) سورة غافر، آية ٤٩.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص١١٧.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١١٦.

ثانياً: السجع:

لعل الجاحظ هو أول من أرخ لهذه الكلمة بلاغياً، وقد استعمل مصطلح السجع في مواقع عـدة من كتابه البيان والتبيين، ومن ذلك قوله: "إذا لم يطل ذلك القول، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلـبة، أو ملتمـسة متكلفة.. لأن الكلام إذا قلّ، وقع وقوعاً لا يجوز تغييره، وإذا طال الكلام وجـدت فـي القوافي ما يكون مجتلبا، ومطلوباً مستكرها"[١]، السجع عند الجاحظ إذن هو توافر التلاؤم في أجزاء الفواصل ويرى أن الكلام إذا طال على هذا الأسلوب أصبحت القوافي مجتلبة مستكرهة.

وتعرض الجاحظ – كغيره من المفسرين منذ نزل القرآن الكريم– لما جرى عليه نظمه من نغم موسيقي ووزن خاص رتيب مكون من وحدات مترابطة منسجمة، وتصدى لوزن القرآن وتكلـم كثيراً فيه نافياً عنه وزن الشعر، يقول: ".. ويدخل على من طعن في قوله **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَـبٍ وَتَـبَّ﴾** [٢] وزعم أنه شعر؛ لأنه في تقديره "مستفعلن مفاعلن". "فيقال له: أعلم أنك لو اعترضـت أحاديـث الـناس وخطـبهم ورسائلهم، لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومـستفعلن فـاعلن، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صـاح: مـن يشتري باذنجان لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً، وهذا قريب، والجواب فيه سهل بحمد الله.. "[٣].

فقد انتهى الجاحظ إلى حقيقة مؤكدة حيث يرى أنه لا تكفي بضع أبيات تأتي عرضاً في وزن الـشعر ليـسمى هذا شعراً، ومنه لا يصح تسمية ما جاء من هذا القبيل من آيات القرآن، فتحكم بأن القرآن شعر أو هو من قبيل الشعر، لأن هذا مثله كمثل الذي يجري عفواً على ألسنة الباعة والعامة، ولا يأتي الشعر بهذه السهولة دون أي قصد إليه، فللشعر حدوده ومعاييره كما أن لقائله شروطا.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٨.

(٢) سورة المسد، آية ١

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٨.

ولنسـق الآن بعـض أمـثلة مـن مقطعات جميلة بديعة التي دبجها الجاحظ بالأسلوب المـتوازن المقطـع تقطيعاً موسيقياً على شيء من السجع، ومن أروع هذه المقطعات، "والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف" حشي ظرفاً، وإناء شحن مُزاحا وجدّا، وإن شئت كان أبين من سحبان وائـل، وإن شـئت كـان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكتَ من نوادره، وإن شئت عجبتَ من غرائـب فـرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مثله، وبزاجـر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، ومن لك بطيب أعرابي ورومي هندي وبفارسي يونانـي، وبقديـم مولّـد، وبميّـت ممـتع، ومـن لـك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر،والخفـي" والظاهـر ، والشاهد والغائب، والرفيعَ والوضيعَ، والغث والسمين، والشّكل وخلافـه، والجنسَ وضدّه .... وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في رُدْن، وروضة تقل في حجر، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى ، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظُ للوديعة من أرباب الوديعة"[١].

وهـذه العـبارات والجمـل كأنها تأتيه عفو الخاطر، ومن وحي الفطرة، دون حيلة أو تكلف، كأن الجاحظ يسوق هذه الجمل القصيرة في ذلك الترادف الموسيقي الجميل، ليضع معالم أسـلوب عربي جديد، قائم على السجع الخفيف حيناً، وعلى الازدواج حيناً آخر، وعلى التقطيع الصوتي المنسجم حيناً ثالثاً، وما هذا إلا دليل على سعة ثقافته، فقد كان قادراً على انتقاء الكلمة دون غيرها، مراعياً التقطيع الصوتي والمعنى لها في السياق.

ثالثاً: الإيجاز:

يقـول الجاحظ في تعريف الإيجاز: "والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ، وقـد يكـون الباب من الكلام، من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز"[٢]، وهذا يعني أن الإيجاز عنده ليس قلة اللفظ، التي تبدو في كثير من الأحوال والمقامات عيا؛ لأننا إن أطلنا الكلام في موضع يقتضي الإطالة ويستوجبها نكون قد أوجزنا.

وهذا النوع من الإيجاز هو الإيجاز بالحذف عند البلاغيين بعد الجاحظ، أي الاختصار الذي يظهر من طريق الإعراب، على مستوى المفردات والجمل"[٣].

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص ص٣٩- ٤٠.

(٢) المصدر نفسه ، ج١، ص٩١.

(٣) إدريـس بلمليـح، الـرؤية البيانية عند الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٣٧.

وقد ذكر الجاحظ أمثلة كثيرة لهذا النوع في كتابه البيان والتبيين، ومن ذلك: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمهاجرين وقد خاطبوه: "يا رسول الله إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا ونصروا، وفعلوا وفعلوا، قال النبي عليه السلام: أتعرفون ذلك لهم؟ قالوا: نعم، قال "فإن ذاك". ليس في هذا الحديث غير هذا، يريد أن ذاك شكر ومكافأة"[١].

ومنه "قول عبد الله بن قيس:

بكَرَتْ عَلَيّ عَـــواذِلِي　　　يلحينني وألومهُنّــــه

ويقُلنَ شيبٌ قدْ عَـــلا　　　كَ وقَدْ كَبُرْتَ فقلت : إنهْ "[٢]

ومنه" قول النابغة:

أزفَ التّرَحل غَيْرَ أنّ رِكَابَنا　　　لما تَزَلْ برِحَالِنا وكَأنْ قدِ"[٣]

وقد قدّر الجاحظ ما حذف من كلامه صلى الله عليه وسلم حين قال: "فإن ذاك"، بقوله: "يريد إن ذاك شكر ومكافأة"، وكذلك في قول عبد الله بن قيس: "فقلت إنه" وتقديره، فقلت: إن الشيب قد علاني وإني قد كبرت، أو أن الأمر كذلك، وأما في قوله النابغة "وكأن قد" فتقديره عنده، كأنها قد زالت لقرب وقت الرحيل.

وأما النوع الثالث من الإيجاز عند الجاحظ، فهو الإيجاز بالقصر ويقول فيه: بل ربّ كلمة تغني عن خطبة، وتنوب عن رسالة، بل ربّ كناية تربي على إفصاح، ولحظ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية قائماً على النهاية"[٤].

"والإيجاز بهذا المعنى هو الذهاب إلى المعاني الكثيرة باللفظ القليل، من طريق تأويل ما لم تقله، وقد تحدث الجاحظ عن هذا النوع مرات عدة بشكل أعمق من حديثه عن الإيجاز بالحذف، وربما يكون مرد ذلك- في زعم الباحثة- إلى الإيجاز بالحذف شيء يخص علماء النحو لا البلاغة، ولهذا كان اهتمام الجاحظ البلاغي بإيجاز القصر أولى من الحذف" [٥].

وأورد أمثلة كثيرة لهذا النوع، ومنها: قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة:

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٠.

(٤) المصدر نفسه ، ج٢، ص٧.

(٥) ادريس بلميلح ، الرؤية البيانية عند الجاحظ ، مرجع سابق ، ص٢٣٨-٢٣٩.

﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾[١] ، وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنـيا، وقـوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [٢] جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني"[٣].

ومنه أيضاً، قول أبي النجم في وصف العير والمعيوراء، وهو الموضع الذي يكون فيه الأعيار:

وَظَلَّ يُوَفَى الأكم ابن خَالِهَا [٤] *

فهـذا ممـا يدل على توسعهم في الكلام، وحمل بعضه على بعض واشتقاق بعضه من بعض [٥].

والأمـثلة علـى ذلك كثيرة فقد أفردها الجاحظ في باب خاص عنوانه: "باب من الكلام المحذوف" [٦] في كتابه البيان والتبيين.

وفـي موضـع آخر يقول: "وأنا ذاكر بعد هذا فناً آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم: وهـو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف وكان كما قال تبارك وتعالى:

"قـل يـا محمد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[٧] فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر"[٨].

---

(١) سورة الواقعة، آية ١٩.

(٢) سورة الواقعة، آية ٣٣.

(٣) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص٨٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٩.ويراجع ، الرؤيا البيانية عند الجاحظ ، ص ٢٣٩.

* يوفـى: يأتـي ويشرف وفي اللسان (وفى)، عيرميضاء على الاكام، إذا كان من عادته أن يوفى عليها، والأكـم جمع أكمة، ما غلظ من الأرض فارتفع دون الجبل، ابن خالها: المقصود به العير، لكثرة تردده على الأكم.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٨.

(٧) سورة ص، آية ٨٦.

(٨) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص١٦-٢٣٠.

ممـــا تقدم يظهر أن الجاحظ قد تطرق لموضوع الإيجاز معرفا به وجاعله في قسمين: الأول: الإيجــاز بالحذف والآخر الإيجاز بالقصر، وقد عرض أمثلة توضيحية كثيرة، وفي هذا دلالة واضحة على سعة ثقافة الجاحظ ورسوخ معرفته البلاغيّة.

رابعاً: الإطناب:

عــدّ الجاحظ المقام مؤشراً لا بد من الأخذ به من حيث أن كل مقال يصلح لا شك لمقام معين ولهذا نجده يقول: "وليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها، ويسوم النفوس مـــا ليس في جلبتها، ولذلك صار يحتاج صاحب كتاب المنطق إلى أن يفسره لمن طلب من قِبَلِهِ علم المنطق، وإن كان المتكلم رفيق اللسان، حسن البيان"[١]، فالجاحظ يرى أن المعاني وأغراض الكـــلام تختلف باختلاف الموضوعات وألوان الاهتمام التي تشغل المتكلم، ولذلك اختلفت أشكال الكلام، وصاحب المنطق أو الفلسفة لا بد له من الإطالة.. إلخ.

وفي موضع آخر يقول الجاحظ: "على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كله، إذ كان السامع لا ينشط له، وجاز قدر احتماله، لا غاية المتكلم انتفاع المستمع، وقد قال الأولون: "قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ، خير من كثير وافق من الاستماع نبوة، ومن القلوب ملالة"[٢]، في هذا النص يحدد الجاحظ الغاية الأساسية التي يهدف إليها كل خطاب فني وهي التأثير في المستمع،" فالإطناب لديه شكلاً خارجياً ينبع من علاقتين أساسيتين وهما: علاقة الألفاظ بالمعاني، وعلاقة الخطاب بالمتلقي"[٣].

وقد ذكر الجاحظ أهدافا للإطناب وأنواعاً ومن ذلك قوله: "والتطويل للتعريف، والتكرار للتوكيد، والإكثار للتشديد"[٤]، وهو بهذا يحدد فائدتين من فوائد الإطناب وهما: التكرير والإيضاح بعــد الإبهام وهذه الأخيرة يؤكدها قوله: "والمعاني المفردة، البائنة بصورها وجهاتها، تحتاج من الألفـــاظ إلـــى أقـــل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهات الملتبسة، ولو جهد جميع أهل الـــبلاغة أن يخبـــروا من دونهم عن هذه المعاني بكلام وجيز يغني عن التفسير باللسان .. لما قدروا عليه"[٥].

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٦، ص ص٧- ٨.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٩.

(٣) إدريس بلمليح ، الرؤية البيانية عند الجاحظ ، مرجع سابق ، ص٢٤٤.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ ، مصدر سابق، ج٤، ص١٥٢.

(٥) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٦، ص٧-٨.

وفـــي موضع آخر نجد الجاحظ يفرق بين الإطناب والإسهاب، فالإطناب تفرضه الفائدة التـــي ينشدها المتكلم فيه، في حين أن الإسهاب مجرد تكلف يقصد صاحبه إليه للتزيد والمباهاة وهو تعمد مستكره ولا فائدة منه وفي هذا يقول الجاحظ: "وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبيـــر والـــبلاغة، والـــتخلص والرشـــاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف والإسهاب، والإكثار، لما في ذلك من التزيد والمباهاة، واتباع الهوى والمناقشة في الغلو"[١].

خامساً: المساواة:

لـــم يذكر الجاحظ مصطلحا خاص بالمساواة ولكنه اكتفى بالإشارات الدالة عليها : "إنما الألفـــاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها"[٢]، وقوله: "نعم وحتى يعطي اللفظ حقه من البيان، ويوفر على الحديث قسطه من الصواب، ويجزل للكلام حظه من المعنى، ويضع جميعها مواضعها، ويصفها، ويوفر عليها حقوقها من الإعراب والإفصاح"[٣].

مـــن النـــصين الـــسابقين يمكـــن القول بان المتكلم لابد له من مراعاة علاقة المساواة والائـــتلاف بـــين اللفظ والمعنى ولا يتناسى أن الهدف الأساسي هو افهام المستمع دون تكلف ، فـــيجعلها علاقـــة مساواة وائتلاف، هدفها الأساسي إفهام المستمع دون تكلف بحسب ما يفرضه مضمون الكلام، من لفظ يلائمه ويتجانس معه.

سادساً: الكناية:

جـــاءت الكناية عند الجاحظ بمفهومها العام، وهي ترك التصريح بالشيء والتعبير عنه تلميحاً وإشارة[٤]، يقول: "رُبَّ كناية تربي على إفصاح ولحظ يدل على ضمير"[٥].

والكـــناية ككل لون من ألوان البيان مرتبطة بالحال، ومسترعاة عنها، وهي تحسن حين يراعي فيها المقام.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص١٩١.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٦، ص٧.

(٣) الجاحظ: رسائل الجاحظ ، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٩.

(٤) أحمد الطويلي، أبو عثمان الجاحظ: دراسة ومنتخبات، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم ابن عبد الله، تونس، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٢٦.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص٧.

يقــول الجــاحظ: "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ... فالإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال ..."[١].

وقــد أشـــار الجاحظ إلى مصطلح الكناية في مواضع عدة، ومنها: "والوضع كناية عن البياض، والبياض كناية عن البرص"[٢]. فالعرب تكنى عن البرص بالبياض والوضح، عادلة عن اللفظ الحقيقي إلى لفظ يهذب المعنى ويلبنه، ومن ذلك أيضاً تسميتهم معاوية بن حزن محجلاً، إذ كان بساقيه برص، فكنوا عن هذا البرص بالتحجيل"[٣].

وتحدث الجاحظ عن الكناية في ثنايا تفسيره لبعض ألفاظ القرآن الكريم وبعض الكلمات الإســلامية المحدثة التي أصبحت تستعمل كناية عن بعض المعاني، من ذلك مثلاً: اسم المنافق لمـــن راءى بالإســـلام واستسر بالكفر .. أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدمّاء .. وكما سموا رجـــيع الإنسان الغائط، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء حاجة للـــستر، ومـــنه العذرة، وإنما العذرة الفناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النّجْو والزبل في أفنيتهم سميت تلك الأشياء التي رموا بها باسم المكان الذي رميت به"[٤].

والكناية إذا طال استخدامها أصبحت أصلاً، قال وهو يتحدث عن جذيمة الأبرش: "فلما ملـــك قالـــوا علـــى وجـــه الكـــناية جذيمة الأبرش .. والكناية إذا طال استعمالهم لها صارت كالأوضـــاح. فمـــن ذلـــك أنهم كنوا عن الفرج فقالوا: كشف علينا متاعه، فصار المتاع والفرج ســـواء، والفرج والقبل والدبر كله أيضاً كنايات .. وقالوا في الكناية: "فلان يدعو إلى نفسه" فلما طال ذلك وكثر قام في القبح مقام الأول"[٥].

مـــن جملة ما تقدم يمكن القول إنّ سعة ثقافة الجاحظ ورسوخها مكنته من الحديث عن مفهوم الكناية وضرب الأمثلة الكثيرة من أجل الإيضاح.

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص٣٩.

(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـــ/ ٨٦٩م)، البرصان والعرجان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠٢هـــ/ ١٩٨٢م، ص٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص٣٣٢.

(٥) الجاحظ، البرصان والعرجان، مصدر سابق، ص٧٣.

سابعاً: التشبيه:

يــرى الجاحظ أن التشبيه مجرد صور ذهنيّة للتعبير عن المراد، وتوضيحه في الأذهان في قالب يمكن إدراكه بالحس، وذلك بتشكيله في صور المدركات الحسيّة، ومن أمثلة التشبيه ما تعــرض لــه الجاحظ في قوله تعالى: **﴿إنها شَجَرَةٌ تَخرُجُ فِي أصلِ الجَحِيم طلعُهَا كَأنّهُ رُؤوسُ الشيَاطِين﴾**[(١)]، فيقول في ذلك: "وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورته، ولكن لما كان الله تعالى، قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين، واستسماجه وكراهيته، وقد أجــرى علـــى ألسنتهم جميعاً ضرب المثل في ذلك، رجع الإيحاش والتنفير وبالإضافة والتفزيع إلـــى مـــا قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمـــم ، وهـــذا الـــتأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن"[(٢)].

وتعــرض الجـــاحظ لهذا المثال مرة أخرى فقال: "فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير، وقالوا: ما عنى إلا رؤوس الـــشياطين المعـــروفين بهذا الاسم من فسق الجن ومردتهم، فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه، ولا وصِفَتْ لنا صورته في كتاب ناطق أو خبـــر صادق، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ من الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه، أو صوّره لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينها، ولا صـــورها لـــنا صادق، على أن أكثر الناس من هذه الأمم التي تعايش أهل الكتابين وحملة القـــرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً؟ .. إلخ"[(٣)].

ومن التشبيهات التي ذكرها الجاحظ:

تشبيه الإنسان بالقمر والشمس[(٤)].

تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب[(٥)].

---

(١) سورة الصافات، آية٦٤- ٦٥.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٤، ص٣٩.

(٣) المصدر نفسه ، ج٦، ص٢١١-٢١٢.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢١١.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٢.

والشعراء يشبهون الضربة بشدق البعير[١].

يشبه النّمام والمداخلُ والدسيس بالقنفذ[٢].

ومـــن خلال البحث في تصانيفه والتنقيب عن مواضع التشبيه يتضح أنّ لفظ التشبيه لم يـــستقر بعـــد على الصورة التي عرفت بعد في البلاغة بل تنازع مدلولاها ثلاثة ألفاظ (البدل، والمـــثل، والتـــشبيه) وأن مناقشته لقضية التشبيه دليل واضح على ثبات قدمه ورسوخ معرفته وعمق ثقافته البلاغية.

ثامناً: المجاز:

المجاز عند الجاحظ يطلق على كل الصور البيانيّة، وهذا واضح عند تناوله لتفسير آيات كثيرة، حيث لم يذكر الاستعارة أو التشبيه .. وأفرد في كتابه الحيوان باباً بعنوان: "باب آخر في المجـــاز والتشبيه بالأكل وهو في قوله عز وجل: **﴿إنّ الذِينَ يَأكُلونَ أمَوالَ اليَتّامَى ظُلماً..﴾**[٣] وقوله تعالى: **﴿أكَّالوُنَ لِلسُّحتِ﴾**[٤]، وقد يقال لهم ذلك، وأن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلـــل وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهماً واحد في سبيل الأكل، وقد قال عز وجل: **﴿إنما يَأكُلونَ فِي بُطُونِهِم نَاراً﴾**[٥] .. فهذا كله مختلف، وهذا كله مجاز"[٦] ثم يأتي بشواهد من الشعر على الاستعمال المجازي لكلمة أكل.

ولا يغفل المجاز من الناحية اللغوية المحدودة، ولكن الجاحظ في تعريفه للمجاز وكلامه عنه لا يفرق بين أنواعه المختلفة، فكلّه قد عدل به عن معناه الأصلي إلى معنى آخر فيه تحوير ومجـــاز، ومـــثال ذلـــك كلامه عن الخضرة في اللغة واستعمال العرب للفظ السواد دالاً عليها والعكـــس، ويعلل هذا الاستعمال بقرب أحد اللغويين من الآخر، وفي هذا يقول: "أصل الخضرة هـــو لـــون الـــريحان والبقول، وجعلوا بعض الحديد أخضر والسماء خضراء حتى سموا بذلك الكحل والليل.

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق ، ج٣، ص٣١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٦٦.

(٣) سورة النساء، آية ١٠.

(٤) سورة المائدة، آية ٤٢.

(٥) سورة النساء، آية ١٠.

(٦) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٥، ص ص٢٥- ٢٨.

قال الشماخ بن ضرار :

وَرُحْنَ رَوَاحاً مِنْ زرُودَ فَنَازَعَتْ زبالة جلبَاباً مَنْ الليْلِ أخضَــرَا

وقال الراجز:

حَتّىَ انْتَضَاه الصُبْحُ مِنْ ليْلِ خُضُرْ مِثْلَ انتضاءِ البَطَلِ السَيفَ الذكَــر

وقـال عز وجل: ﴿**وَمِنْ دُونِهِمَا جَنّتَانِ، فَبِأيِ آلاءِ رَبّكُمَا تُكذِبَان، مُدْهَامَّتَان**﴾ [١] قال: خضروان، من الرّي سوداوان"[٢].

ومـن المجاز عند الجاحظ استعمال اللفظ في غير حقيقته توسعاً، من أهل اللغة، ويتكلم عن المجاز في قوله تعالى: ﴿**الّذِينَ قَالُوا إنَ الله عَهِدَ إلينا ألاّ نُؤمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يأتِينا بِقُرْبَانٍ تَأكُلُهُ النّارُ ..**﴾ [٣] ثم يقول: "قد علمنا أن الله عز وجل إنما كلمهم بلغتهم"[٤].

إن المجـاز كما يبدو دليل على ثقافة الجاحظ المتعمقة إذ كان يدعو إلى التعمق في فهم الأشـياء ومحاولـة النظـر إلى بواطن الأشياء، وعدم اللجوء إلى التفسير الظاهري الذي يفقد الأشياء جوهرها ويفسد حقيقتها.

ويبدو جلياً أن الجاحظ استجمع بوقوفه عند هذه المباحث البلاغية معرفة واسعة ودقيقة وعمـيقة لقضايا الفن البلاغي وتاريخه وجزيئاته، واستطاع أن يقدم فيها أفكاراً جديدة تدل على روحه الوثابة وقدرته على الإبداع وعمق بصره في التحليل والاستنتاج والمقارنة.

ويمكن القول " إن اهتمام الجاحظ بالبلاغة كان وسيلة للرد على أغراب المفسرين في الـرد على الفهم الحرفي أو الفهم المخطوء لألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف" [٥] ، وفـي هـذا يقـول فيكتور شلحت: "إن دراسات الجاحظ البلاغية في تفسير القرآن الكريم كانت صـورة لدراسـات المعتزلة في المجاز والتشبيه والاستعارة، وكانت تلك الدراسة نتيجة واسعة مقارنة في القرآن الكريم والبيان العربي، والكتب المقدسة وبلاغة الأمم الأخرى"[٦].

---

(١) سورة الرحمن، آية ٦٢- ٦٤.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص ص٢٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨٣.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٨.

(٥) داود سلوم ، الجاحظ منهج وفكر ، مرجع سابق ، ص ١٣٦.

(٦) فيكـتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، الطبعة الثالثة، دار المشرق، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٥٤.

المبحث الثاني: ثقافته النقديّة:

يتبوأ الجاحظ منزلة سنيّة بين النقاد العرب، فقد كان ذا ذائقة نقديّة لافتة وإحساس فنيّ نادر، واستطاع أن يحاكم الأدب محاكمة موضوعيّة منهجية، وأن يعبّد الطريق لملامح نظريةٍ نقديةٍ عربيةٍ جديدة، أفاد منها اللاحقون، غير منكرين سبق الجاحظ وريادته(١).

وقد جاءت معظم آرائه النقديّة مبثوثة في تضاعيف كتبه، مما يدلنا على سعة ثقافته، وغزارة علمه، وواسع اطلاعه.

ومن أشهر القضايا النقديّة التي أثارها الجاحظ، قضية اللفظ والمعنى؛ ذلك لأنه عقب على أبي عمرو الشيباني حين استحسن معنى البيتين:

لا تَحْسَبَنَّ الموتَ مَوتَ البلى   وإنّمَا المَوتُ سُؤَالُ الرجَالِ

كِلاهُمَا مَوتٌ ولكِن ذَا   أَفْضَعُ مِنْ ذَاك عَلَى كُلِّ حَالِ(٢)

قال الجاحظ: "ذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتميز اللفظ، وسهولته، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير"(٣).

تجد الباحثة من النص السابق، أن الجاحظ يرى أن للأسلوب شروطاً يرقى بها، فيجب ألا يهبط إلى الإسفاف وأن ينزل إلى الغريب، وأن يكون اللفظ متميزاً سهلاً، فيه الرونق وصحة الطبع، كما ينبغي أن يكون جيد السبك، متماسك البناء، وهذا الرأي يؤكد أن الجاحظ كان خبيراً بأسرار الجمال في الشّعر، فهو صناعة وضرب من الصبغ ولون من ألوان التصوير، والمتأمل في هذا القول يدرك أنّ الجاحظ لا يهمل جانب المعنى أو يفضل عليه، وإنما يدعو إلى المساواة والموازنة حتى لا يغلب اللفظ المعنى أو المعنى اللفظ، وقد ذكر في تقدير المعاني والاعتداد بها عدداً من الأقوال التي أوردها في كتبه، منها: "فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصوناً عن التكليف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها، على هذه

---

(١) الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر ، ت٢٥٥هـ/٨٦٩م، فصول مختارة ، تحقيق : محمد محمود الدروبي ، الطبعة الأولى ، دار البشير ، عمان ،١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م،ص٩.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٣١.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣٢.

الصفة أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة"(١).

من هذا النص تجد الباحثة أن الأمر لم يكن عند الجاحظ محض ألفاظ ترصف، بل لا بد من الترابط بينهما وبين المعنى ليشكلا ألفة واتساقاً وكأنهما روح وجسد.

ويقـول في موضع آخر: "أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم دلاً مُتَعَشّقاً، صار في قلبك أحلى، ولصـدرك أمـلأ، والمعاني إذا كسبت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العـيون عـن مقاديـر صـورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت، وعلى حسب ما زخرفـت، فقـد صـارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي"(٢).

فـي هذا المقطع يحذر الجاحظ من استعمال الألفاظ بطريقة تطغى على المعاني، وتؤثر في السامع، فتبعد به عن المعنى المقصود، وهو بهذا يضع المعنى في رتبة تقارب اللفظ، بل إنه لا فـرق بينهما عنده، فالمعنى لا يظهر ولا يتضح إذا كان الأديب على قدر من حسن استعمال الألفاظ بحيث تؤدي إلى وضوح الدلالة، بعيداً عن الغموض والإبهام والتعمية، ولا بد من تحقق شرف اللفظ وشرف المعنى، وصحة الطبع، والبعد عن التكلف والتصنع.

وفـي موضـع آخـر يتمسك الجاحظ بالألفة بين اللفظ والمعنى، فيقول: "إنّ لكل معنى شـريف أو وضـيع، هزل أو جد.. ضرباً من اللفظ هو حقه وحظّه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر بدونه"(٣).

مما تقدم يظهر أن الجاحظ انتصر للفظ ، وحذر من استعمال الألفاظ بطريقة تطغى على المعاني وتؤثر في السامع فتبعد به عن المعنى المقصود.

ولهذا ترى الباحثة أن الجاحظ لم ينتصر لطرف دون الآخر، بل إنه دعا إلى التلاحم بين الشكل والمضمون، وبهذا تتحقق الرابطة البيانيّة للكلام، وتتجلى نصاعة الأسلوب.

يقول داوود سلوم نقلاً عن كتاب المعنى الأدبي لـ " وليم راي " إن النقاد المعاصرين يرون- في قراءة نص الجاحظ الذي يقول فيه: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص ٨٣.

(٢) المصدر نفسه ، ج١، ص٢٥٤.

(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج٣، ص٤٠.

والعربـــيّ والـــبدويّ والقرويّ والمدنيّ.. .."[1] – "أن اكتساب التجربة ليس مجرد إضافة، بل إعادة تركيب ما نكمله"[2].

"فالجـــاحظ كمـــا يـــبدو من هذه الملاحظة يقصد أن النص الأدبي لا يقدم معنى جديداً، فالقارئ والناقد يمتلكان هذا المعنى الخزين، بل يملكه كل إنسان، ولكن الأديب أو الشاعر يقدمه بصبغته الخاصة.

وقد أساء كثير من الدّارسين فهم هذا الرأي الجاحظي، وعدّو الجاحظ من أنصار اللفظ، بيد أن الأمر لم يكن كذلك، إذ لو كان من أنصار اللفظ لما كان ليعترض على مضامين الشعراء ما داموا قد صاغوها بأسلوب عربي سليم"[3]، ومن أمثلة ما ردّه الجاحظ قول العمي:

كسنوّرعَبْدَ الله بيعَ بدَرَاهِـــــــــــم صَغِيراً، فلَمّا شَبَّ بِيْعَ بِقِيرَاطِ"[4]

وترد الباحثة على منْ فهم أنّ الجاحظ انتصر للفظ، بالنصوص الجاحظية السابقة نفسها، أيضاً حتى ولو كان كذلك فلا بد من دوافع دفعته إلى قول ذلك رغبة أو رهبة، والدوافع هي كما يأتي:

الدافع الأول: أن اللفظ الرقيق والتركيب الناصع والجرس الناعم، مظاهر تسيطر على النفوس فتجذبها، وجزالة الأسلوب تهمين على القلوب فتنبهر بها، وتساق إليها، ولعلّ الجاحظ افتتن بهذا وسيطر عليه نفسياً.

الدافع الثاني: أنّ عـــصر الجاحظ عصر مزدهرٌ بالترجمة والتأليف والكتابة، وبما أن الكُتاب والأدباء بهم تتفاخر الأمراء والوزراء والولاة، ويتميزون بالأداة الـــصالحة والمهارة الفنيّة، وهما يستقيمان باللفظ والتحكم فيه، وإخضاع تلك المهارة لأغراض الدولة ومتطلبات السلطان، وهذه الأغراض ليست علميّة، لتحتاج إلى عميق المعاني، وإنما أغراض سياسيّة تحققها الألفاظ المزركـــشة والرقيقة والتركيب الناصع، ولهذا عمِد الجاحظ إلى التعقيب للفظ فكان يتريث ويتدبر حفاظاً على النفس وقضاء للمصالح.

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٣١.

(٢) داود سلوم ، الجاحظ منهج وفكر ، مرجع سابق ، ص١٣٠.

(٣) المرجع نفسه ، ص١٣٠-١٣١ .

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٥، ص٣١٥.

وأمـــا الدافـــع الثالـــث: فهو العصبيّة القوميّة، فقد كان تعصب الجاحظ للفظ رداً على الشـــعوبيين الذيـــن حـــاولوا تفضيل نصوصهم الأدبيّة على النصوص العربيّة بكثرة معانيها، وتدفق أغراضها، وتعدد موضوعاتها.

ويقول الجاحظ في تأكيد وجهة نظره في كون المعاني خزيناً إنسانياً مشتركاً: "ولا يعلم فـــي الأرض شاعر تقدم في تشبيه عصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كـــريم، أو فـــي بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يعد على لفظـــة فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط. وقال: انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول هذا إذا قرّعوه به"[١].

ويقـــول فـــي موضع آخر: "قال منْ عَلِم حق المعنى: أن يكون الاسم له طريقاً، وتلك الحالة وفقاً، ويكون الاسم لا فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقتصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً، ويكون فـــي ذلـــك ذاكـــرةً لما عقد عليه أول كلامه ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ويكون لفظه مونقاً"[٢].

فهو يرى أن المعاني المشتركة في التجارب الأدبية يجب أن تؤدى بمستواها في ذاتها، فالتجربة العاطفية يجب أن تؤدى بألفاظها، وهكذا يكون قبول المعنى المشترك مع القارئ حسناً ومرضياً، وكأنه اكتشاف آخر جديداً لم يألفه ولم يعرفه.

ويكمل ما انتهى إليه بقوله: "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل على أقدار منازلهم"[٣].

وممـــا يدل على ثقافة الجاحظ الواسعة ما دلت عليه عبارته السابقة فهو يؤمن بأن لكل إنســـان مستوى عقلي مختلف عن الآخر و لهذا لا بد من مراعاة المستويات العقلية عند توجيه الكلام للمخاطب، وهذا واضح وجلي في قوله: "ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نـــوع مـــن المعانـــي نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح"[٤].

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص٣١١.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٩١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٩١.

(٤) الجاحظ ،الحيوان ، ج٣، ص٣٩.

مما تقدم عرضه في قضية اللفظ والمعنى، يظهر أن الجاحظ كان ذا ثقافة واسعة ومرنة، جعلته قادراً على النقد وعرض رأيه بجرأة، وجرأته العلميّة رسخت معالم وقواعد اللفظ والمعنى وأهمية كل منهما، وقد كان الجاحظ قادراً على أن يبرهن ويجادل لإقناع الآخرين برأيه، ولا غرابة في ذلك.

ومن القضايا التي عرض لها الجاحظ وقدم فيها آراء قيمة، قضية الانتحال، فقد كان الانتحال شائعاً قبل عصر الجاحظ، وفي عصره، والسبب في ذلك أنه "أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والانتحال لكسب المال والتقرب إلى الأشراف والأمراء، والظهور على الخصوم، والمنافسين، ونكاية العرب"(١).

إن كثيراً من أبيات الشعر العربي قد رويت في غيرصورة، وسبب الاختلاف في ذلك اختلاف مصادر الرواية الواحدة، وقد يدخل في ذلك تحريف الرواة الذي ينبع من النسيان،أو تقادم الزمن على الحفظ أو تعديل النص أو لتغيير مقصود في اللغة(٢)، وقد انتبه الجاحظ إلى ذلك ونبّه إليه ما أسعفته النصوص، وحين يروي لنا البيت الآتي:

فَجِئْنَاهُم مِنْ أَيْمَنِ الشِّقِّ غَدْوَةً ... وَيأتِي الشَّقِيّ الحِيْن مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي

يروي خلافاً في رواية صدر البيت ويقول: "وأما رواية أصحابنا فهي: فجئناهم من أيمن الشق عندهم"(٣).

وقد أدرك الجاحظ أن بعض الصوّر في تجارب الشعراء لا يجوز عليها التجاوز لخصوصيتها، ويعد وصف عنترة للذباب في بيت ربيعي غذاه المطر صورة مزيدة لا يستطيع أن يتخطاها الشعراء، وفي هذا يقول الجاحظ: "ما كان من عنترة في صفة الذباب فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء، فلم يعرض له أحد منهم. ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر"(٤).

ويعلق الجاحظ على بيت عنترة الذي يقول فيه:

---

(١) رفعت زكي محمود عفيفي، من مظاهر النقد الأدبي عند العرب، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمدية، الأزهر، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٠١.

(٢) هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، عمان، د.ت، ص١١٤.

(٣) الجاحظ، الحيوان ، مصدر سابق، ج٥، ص٥١٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٣١٢.

غَردًا يُحكُّ ذِرَاعَه بذِراعِــــــــــه فِعْلُ المكبِّ على الزّنـــــــادِ الأجْذَم [١]

قـــائلاً: "يريد فعل الأقطع المكب على الزناد، والأجذم: المقطوع اليدين، فوصف الذباب إذا كـــان واقعاً ثم حكّ قليلاً إحدى يديه بالأخرى، فشبه ذلك برجل مقطوع اليدين، ومتى سقط الذباب فهو لا يفعل ذلك، ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة"[٢].

ويقول الجاحظ أيضاً: "يصفون عين الأسد بالغؤور " ثم يعقب بقوله " ومع هذا لا تعرف بعد بشار أشعر منه[٣](أي من أبي نواس). يظهر أن الجاحظ قد لاحظ العيوب العلميّة، ومن هذه العيوب وصف أبي نواس- وهو ابن حضر- عين الأسد بالجحوظ، وهذه الملاحظة تنم عن قوة ملاحظته.

ويـــتحدث الجـــاحظ عـــن عدوات الحيوان فيقول: "ذكر صاحب المنطق عداوة الغراب للحمار، والنحويون ينشدون في ذلك قول الشاعر:

عَادِيتنا لا زلتَ فِيْ تبَـــابِ عَدَاوة الحِمَار للغُـــــرَابِ

ثم يقول متشككاً: "ولا أدري من أين وقع هذا إليهم"[٤].

"وقـــد يعـــتمد فـــي ردِّ الأشعار المنحولة على أساليب الشعراء وطريقتهم وبناء الجملة وجمالـــيات الأســـلوب"[٥]، ولـــذلك فهو يورد بيتاً ينسبه الرواة إلى أوس بن حجر قال: "وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر:

فانْقضّ كَالدُرى يتْبَعَــه نَقع يَثُورُ تَخَالُه طُنُبًا[٦]

ثم يفصح و يؤكد نسبة البيت بسبب الأسلوب والطريقة: "وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا مـــن لا يفـــصل بين شعر أوس بن حجر وشُريح بن أوس"[٧]وتقاليد شعراء البداوة في رسم الصورة التقليدية بيانيا" [٨] ، قال: "وقد طعنت الرواة في هذا الشعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم من قوله :

---

(١) الجاحظ، الحيوان ، مصدر سابق المصدر نفسه ،ج٣ ،ص٣١٢.

(٢) المصدر نفسه ، ج٣، ص٣١٢.

(٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٤٥٧

(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص٩٧.

(٥) داود سلوم ،الجاحظ منهج و فكر ،مرجع سابق ، ص ١٢٨.

(٦) الجاحظ، الحيوان ، مصدر سابق ، ج٦، ص٢٧٩.

(٧) المصدر نفسه، ج٦، ص٢٧٩.

(٨) إحسان عباس ،تاريخ النقد الأدبي مرجع سابق ،ص٨٢ .

والعيرُ يَرْهَقُهَا الحِمارُ وَجَحْشُهَا　　　يَنْقضُ خَلْفهُمَا انقِضَاض الكَوكَبِ

فــزعموا: أنـــه لــيس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب، ولا بدن الحمـــار ببدن الكوكب، وقالوا: في شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها:

فَرجّيِ الخَيْر وانتظِري إيابي　　　إذا مَا القارظُ العَنَزيُّ آبا"(١)

ويقــول الجاحظ في موضع آخر: "ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة.

ليس على أنّ حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم"(٢).

وأوضـــح من هذا النص، "أنه تمكن من تتبع القوانين الفنية في وصف الثور في قصائد المدح والرثاء عند العرب، فتوصل إلى قانون ثابت في قصائد هذين الضربين من الشعر.

وهــو مــن الذين يعرفون أن الشعر الجاهلي قد أضيف إليه الكثير من الشعر المنتحل، ولـــذلك فهــو يسخر في "رسالة التربيع والتدوير" من أحمد بن عبد الوهاب الذي كتب فيه تلك الرســالة ويطلــب مــنه لــتقادم ميلاده أن يكشف عن شعر القدامى وأن يؤكد لهم الأصيل منه والمــنحول"(٣) قال: "وقد ذكرت الرواة في المعمرين أشعاراً وصنعت في ذلك أخباراً، ولم نجد علـــى ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ولا تقدر على ردها بجواز معناها ولا على تثبتها إذا لم يكن معها دليل، وقد تعرف ما في الشك من حيرة.." (٤).

و يتحدث الجاحظ عن التشبيه بالقنفذ ،فيقول :"و كذلك يشبه النمام و المُداخل ،و الدّسيس بالقــنفذ لخروجه بالليل دون النهار ،و لاحتياله ..."(٥)و بعد روايته تلك الأشعار يقول :"وهذا الشعر من غُرر الأشعار، وهو مما يحفظ" (٦)

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٦، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه ، ج٦،ص٢٧٠ .

(٣) داود سلوم ، الجاحظ منهج و فكر ، مرجع سابق ، ص١١٩-١٢٠

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: محمد عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠٤.

(٥) الجاحظ، الحيوان ،مصدر سلبق ،ج٤ ، ص١٦٦.

(٦) المصدر نفسه ،ج٤ ،ص١٦٨.

ويقـول أيضاً :"و ان أحببت أن تروي صغار القصائد شعراً لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد (الفرزدق)فانك لم ترَشاعراً قط يجمع التجويد في القصار و الطوال غيره"[١].

وهـو بذلك يشير إلى مصادر التجارب الفنيّة ذات الجمال الأدبي الراقي، وفي هذا دليل واضح على نبوغه وثقافته الواسعة.

ويرى الجاحظ أن الشعر لا يصلح في الاستنباط التاريخي إلا في حالة ثبوت نسبته إلى قائله ، بعد أن ذكر هذا البيت:

فانْقضّ كالدُّريّ مِنْ مُتَحَـــدِّرٍ لمَعَ العَقِيقةِ جُنْحَ ليْلٍ مُظْلِمِ

ويعلق على أن هذا البيت لا يصلح للاستنباط للسبب الآتي: "خبرني أبو إسحاق أن هذا البيت في أبيات أخر كان أسامة صاحب رَوح بن أبي همام هو الذي كان ولدها: فإن اتهمت خبر أبـي اسـحق، فسمّ الشاعر، وهات القصيدة فإنه لا يقبل في مثل هذا إلا بيت (صحيح)، صحيح الجوهـر مـن قصيدة صحيحة لشاعر معروف و إلا فإن كل ما يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيت منها أجود من هذا البيت"[٢].

وممـا يتبـين أن الجاحظ قد حدّد الأسس التي يُعرف بها الأدب المنسوب إلى صاحبه حقـيقة والمـنحول، وقـد اهـتم الجاحظ بالرواية وأصابها، و هي أمور تهم الناقد وجزء من مسؤوليات النقد الأدبي، وهذا إنما يدل على ثقافته الواسعة.

وعلـى الـرغم من ذلك، فإننا نجد الجاحظ قد قام بنحل كتبه للآخرين وفي ذلك يقول: "وإني ربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيره، واجعله على من تقدمنـي عـصره، مثل المقفع، والخليل، وسَلمْ صاحب بيت الحكمة، ويحيى بن خالد، والعتابي، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكـم من هذا الكتاب، لاستنساخ الكتاب، وقراءته عليه، وربما ألفت الكتاب المحكم وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم"[٣].

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ، مصدر سابق ، ج ٣، ص٩٨ .
(٢) المصدر نفسه، ج٦، ص ص٢٧٨- ٢٧٩.
(٣) الجاحظ، البخلاء، مصدر سابق، ص٤١.

مما تقدم يظهر أن إقرار الجاحظ بالوضع والنحل سببه في المرتبة الأولى النزعة الفنيّة لــيس غــير، وأن الوضع والنحل يعتمد على عوامل ونزعات ذاتية منفعية لا علاقة لها بتقويم الأدب، وكــان للجــاحظ خصوم وحساد، ينكرون عليه فنه وإبداعه، وما كان وضعه ونحله إلا نوعاً من العبث بخصومه، أو الرغبة في إذاعة ما يكتب وترويجه.

الفصل الثالث: ثقافته اللغويّة

المبحث الأول: ثقافته النحويّة .

المبحث الثاني: ثقافته اللغويّة.

المبحث الثالث: ثقافته الصرفيّة.

المبحث الرابع: ثقافته الصوتيّة.

المبحث الأول : ثقافته النحويّة:

كـــان الجـــاحظ على علم بالقضايا النحوية الكبرى التي تدارسها أساتيذه و أصحابه ،و كـــان مـــنهم :الأخفـــش صـــاحب الرســـائل مـــن علـــم الكلام، وعلوم القرآن والقوافي واللغة والعـــروض[١]، وكان الجاحظ يلومه على استغلاق كتبه عامداً، أيضاً كان معجباً بالخليل وأضع علـــم العَـــرُوض ومعجـــم العين، ولكنه أنكر عليه ادعاءه العلم بالكلام وبأوزان البناء، وعدّ هذا الادعاء من خطأ المعلمين[٢]. وقد أفاد الجاحظ من الأصمعي في اللغة والنحو.

و علـــى الـــرغم من معرفته بالنحو، فلم يتعمق الجاحظ في النحو، ولم يؤلف فيه؛ لأن الـــضروري من النحو في نظره هو ما يؤدي إلى السلامة من فاحش اللحن، وأن من يعملون في مجـــال النحو، ومن يدخلون في جدال مسائلة، إنما هم يبتعدون عما فيه مصالح العباد والبلاد[٣] ، وفـــي هذا يقول: "وأما النحو فلا تشغل قلبك منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومـــن مقـــدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء عن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو أولى به، ومذهل عما هو أرد عليه منه من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع، وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه، من لا يحتاج إلى تعـــرف جسيمات الأمور والاستنباط لغوامض التدبُّر ولمصالح العباد والبلاد... ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه، وعويص النحو لا يجري فيه المعاملات ولا يضطر إليه شيء"[٤].

و الجـــاحظ بهذا الرأي يقضي على جميع تصعيبات النحويين، ويبني أسساً للعلوم الأدبيّة العربيّة، ويدلنا في الوقت نفسه أنه ممن تعرف جزئيات الأمور[٥].

وقد شكا الجاحظ صعوبة النحو إلى الأخفش قائلاً: "قلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الـــناس بالـــنحو، فلِمَ لا تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، ما بالك تقـــدم بعض العويص، وتؤخر بعض المفهوم؟! قال: أنا رجل لم أصنع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه، قلّتْ حاجاتهم إليّ فيها، وإنما كانت

---

(١) نعـــيم الحمـــصي وعـــبد المعين، من كتاب الحيوان للجاحظ، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ص٩٨- ٩٩.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١،ص٢٨٢.

(٣) عطية سليمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللغوية، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، السويس، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م ، ص٨٤ .

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة المعلمين، تحقيق :عبد السلام هارون، مصدر سابق، ج٣، ص٣٨.

(٥) نعيم الحمصي ، من كتاب الحيوان للجاحظ ، مرجع سابق، ص ٩٧ .

غايتـــي المنالة، فأضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت التكسب ذهبت"[١].

ويـــرى الجـــاحظ إن الإعـــراب يفسد نوادر المولدين، وهذا ما أشار إليه تحت عنوان: "إفـــساد الإعراب لنوادر المولدين" في كتابه الحيوان فيقول: "وأنا أقول إنّ الإعراب يفسد نوادر المـــولدين، كمـــا أن اللحن يفسد كلام الأعراب؛ لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلـــك المخـــرج، وتلـــك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه بعـــض كـــلام العجاب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته"[٢].

أخيـــرا، تـــرى الباحـــثة أن الجاحظ على كثرة كتبه لم يتعرض لمسألة من مسائل النحو، وذلك لـــتحفظه على هذا العلم والخوض في بحوثه، وإنه على الرغم من عدم اشتراكه بجدل النحويين، فهو على علم بالقضايا النحويّة الكبرى التي تدارسها أساتيذه وأصحابه.

المبحث الثاني : ثقافته اللغويّة:

مـــن القـــضايا اللغويّة التي عرض لها الجاحظ و قدم فيها آراء قيمة ، قضية نشأة اللغة ،فقد رأى أنها توقيف من الله عزّ و جل، وفي هذا يقول: "إن الله عزّ و جل لم يخبرنا أنه قد كان علـــم آدم كـــل شـــيء يعلمـــه تعالى كما لا يجوز أن يقدره على كل شيء يقدر عليه، وإن العبد المحـــدود القـــوى، لا يبلغ صفة ربه الذي اخترعه ولا صفة خالقه الذي ابتدعه، فمعلوم أنه إنما عنى بقوله **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**[٣] علّمه مصلحته في دنياه و آخرته، وقال عز وجل: **﴿وَفَـــوْقَ كُـــلّ ذِي عِلْـــم عَلِـــيمٌ﴾**[٤]"[٥]، كمـــا يرى أن الناس قادرون على الاشتقاق من اللغة والتـــصرف بهـــا، لذلك يكثر الناس من ذكر الاستعمال، ومن استبدال كلمة موضع كلمة، وذكر ســـقوط كلمـــات جاهلـــية من الاستعمال، ولو كانت اللغة إلهاماً لما تمكنا من الاستبدال ولا من

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٩١-٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٢.

(٣) سورة البقرة، آية ٣١.

(٤) سورة يوسف، آية ٧٦.

(٥) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٥، ص ص٢٠١-٢٠٢.

الاشـــتقاق، ولا تمكـــنا من وضع كلمات جديدة[١]. ويقول الجاحظ بهذا الشأن: "فإذا كان العرب يشـــتقون كلامـــاً من كلامهم، وأسماء من أسمائهم، واللغة عارية من أيديهم ممن خلقهم ومكنهم وألهمهـــم وعلمهـــم، وكان ذلك منهم صواباً، عند جميع الناس، فالذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة، وكما أن له أن يبتدئ الأسماء فكذلك له أن يبتدئها مما أحب فقد أسمى كتابه المنزل (قرآنا) وهذا الاسم لم يكن حتى كان"[٢].

و يعلـــل الجـــاحظ سبب كثرة كلام الناس مستشداً رأياً منسوباً للغويين الهنود في قوله: "وتزعم الهند: أن السبب في كثرة كلام الناس اختلاف صور ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقادير أصـــواتهم فـــي اللين والشدة وفي المد والقطع كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم"[٣].

وفي عرضه لهذا الرأي دلالة واضحة على ثقافته اللغوية وإطلاعه الواسع فهو يرى أن اللغة كائن متطور ومتبدل، وقد أخذ برأي الأصمعي حين قال: "قد كان للعرب كلام على معاني فإذا تبدلت تلك المعاني لم يتكلم بذلك الكلام"[٤].

و فـــي تفضيله بعض اللغات على بعض يقول: "وليس في الأرض أحسن حلوقاً منهم، ولـــيس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقل تحطيطاً منهم، وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأرت والفأفأة والعي ومن في لسانه حبسة غيرهم طلوع الشمس إلى غروبها فلا يستعين بالتفاته ولا بسكته حتى يفرغ من كلامه"[٥].

و يبدو أن الجاحظ قد بالغ كثيراً حين قال بأن الرجل منهم يخطب من طلوع الشمس إلى غروبها دون أن يسكب إلا إنه يمكن القول بأن الجاحظ أتى بهذا الحديث للمدح فقط .

ومن الظواهر اللغوية التي تعرض لها الجاحظ ما كتبه عن أثر المجتمع على اللغة، فلم يغفل الجاحظ أهمية اكتساب اللغة ،فقد رأى أن للمعايشة أثر كبير في اكتساب اللغات النازحة ،و فـــي ذلك يقول :"قال أبو الحسن: قال مولى زياد: أهدوا لنا همار وهشي ، وقال: أي شيء تقول ويلك، قال: أهدوا لنا أيراً، يريد أهدوا لنا عيراً قال زياد: ويلك الأول خير.

---

(١) مـــازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،، دمشق، ١٤٠٨هـــ/ ١٩٨٨م، ص٥٥٦.

(٢) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢١- ٢٢.

(٤) الجاحظ، البخلاء، مصدر سابق، ص١٩٦.

(٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ ، رسالة فخر السودان على البيض، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مصدر سابق، ج١، ص١٩٥.

وقال الشاعر يذكر جارية له لكناء:

أكثر مَا أسمَعُ مِنْهَا بالسَحَــر

تَذكيرُهَا الأنثى وتأنيث الذكَر

والسوأة السوآء فِي ذِكر القمَر

فـــزياد قد فهم عن مولاه، والشاعر قد فهم عن جاريته، ولكنهما لم يفهما عنهما من جهة إفهامهـــا لها، ولكنهما لما طال مقامهما في الموضع الذي يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام"[١].

يـــرى الجـــاحظ أن علة – رفض النحاة أن يسمعوا عن أعرابي يفهم اللغة التي يشوبها كثيـــر من الخطأ –هي إطالة الإقامة في تلك المواضع التي يشوب لغتها الخطأ،و في ذلك يقول: "ومتـــى وجـــد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه، ولم يسمعوا منه؛ لأن ذلك يدل على طـــول إقامـــته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان؛ لأن تلك اللغة إنما انقادت و استوت ، و اطردت و تكاملت الخصال التي تلك الجزيرة ، وفي تلك الجيرة و لفقد الخطأ في جميع الأمم"[٢].

وفـــي موضـــع آخر نجد الجاحظ يرى أن اللغة تتغير تبعاً للطبقة التي تتحدث بها، وقد أشـــار إلى هذا قائلا تحت عنوان: "حظ طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس": "ولكل قوم ألفـــاظ حظـــيت عـــندهم، وكـــذلك لكل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض، وصـــاحب كـــلام موزون فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها ليتدبرها في كلامـــه، وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم عني وأخف لمؤنتهم علي"[٣].

وفـــي موضع آخر يشير إلى ذلك قائلاً: "وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحـــدث أوجزه إذا أخبر، وكذلك فإن من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوام، وفي صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل"[٤].

---

(١) الجاحظ ،البيان و التبيين ، مصدر سابق، ج١، ص١٦٢.

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ،ص١٦٣ .

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٤.

(٤) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٣، ص٣٦٦.

وفي موضع آخر يقول الجاحظ: "إن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلــك، وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتقصير عنها"[1]،فالواضح أن الجاحظ يؤمن بأن للحاجة أثر كبير في اكتساب اللغة ،ويوضح هذا قوله تحت عنوان: "رأي الهند في سبب اختلاف كلام الناس"، يقول: "تزعم الهند أن سبب حالة كثر كلام الناس واختلفت صور ألفــاظهم ومخــارج كلامهم ومقادير أصواتهم في اللين والشدة وفي المد والقطع، كثرة حاجاتهم، ولكثــرة حاجــاتهم، كثــرة خواطرهم وتصاريف ألفاظهم واتسعت على قدر اتساع معارفهم"[2]. فالحاجة إذن أساس اكتساب اللغة وتطويرها.

ومــن الظواهــر اللغوية التي تعرض لها الجاحظ، لغة الطفل فقد لاحظها كيف تتكون؟ فــيقول فــي أول ما يتهيأ للطفل من أحرف اللغة: "والميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال، كقــولهم: مــا مــا و با با؛ لأنها خارجان من عمل اللسان، وإنما يظهران بالتقاء الشفتين، وليس شــيء مــن الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم، من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة"[3].

و ممــا يــدل على ثقافة الجاحظ الواسعة أنه عرف العلاقة بين بعض اللغات وبعضها، وفــي ذلك يقول: "وقلت: بل أزعم أن الخراساني والتركي إخوان وأن الحيز واحد وأن حكم ذلك الــشرق، والقضية على ذلك الصقع متفق غير مختلف، ومتقارب غير متفاوت، وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن كانت راسخة فقد كانت متشابهة وحدود البلاد المشتملة عليهم إن تكن متساوية فإنها متناسبة وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص وافترقوا ببعض الوجوه، وزعمت أن الاختلاف بين التركي والخرساني ليس كاختلاف ما بين الرومي والصقلبي والزنجي والحبشي، كاختلاف ما بين المدري والوبري والبدوي والحضري والسهلي والجبلي، وكاختلاف مــا بين من نزل البطون، وبين من نزل النجود وبين من نزل الأغوار، وزعمت أن هؤلاء وإن اخــتلفوا فــي بعض اللغة وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصّور، فقد نجد أن عليا تميم وسفلى قــيس وعجز هوزان وفصحاء الحجاز خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن، وكذلك الصورة والصورة والشمائل والأخلاق، وكلهم ما بين قحطان وعدنان من قبل ما طبع الله عليه

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ، ج٥، ص٢٩٠.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٦٢.

تلــك التربة من خصائص الغرائز وما قسم لأهل كل جزيرة من الشكل والصورة ومن الأخلاق واللغة"[١].

ويــرى إن أول مــن تكلــم العربية بلسان مبين بعد أن كان يتكلم الأعجمية هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وفي هذا نجده يقول: "وقد جعل الله إسماعيل وهو ابن أعجمين عربياً؛ لأن الله تعالى لما فتق لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب وفطره على الفصاحة العجيبة علــى غير النشو والتمرين، وسلخ طباعه من طبائع العجم، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء، وركبه اختــراعاً علــى ذلــك التركيب، وسواه تلك التسوية وصاغه تلك الصيغة، ثم حماه من طبائعهم ومــنعه من أخلاقهم وشمائلهم وطبعه من كرمهم وأنفقتهم وهممهم على أكرامها وأسناها وأشرفها وأعلاهــا وجعــل ذلــك برهاناً على رسالته ودليلاً على نبوته، وصار أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب"[٢].

فالواضـــح أن هذا النص هو امتداد لفكرة التوقيف في اكتساب اللغة- التي أشارت إليها الباحــثة أنفــا- فالجاحظ يرى أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام قد انتقل من اللغة الأعجمية إلــى العــربية بــدون تعلــم، ولكن الله ألهمه ذلك كما ألهم آدم من أسماء الأشياء ما يصلح دنياه وآخرته [٣].

ويقــول تحت عنوان: "القول في إنطاق الله عز وجل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالعــربية المبيــنة على غير التلقين والتمرين وعلى غير التدريب والتدريج وكيف صار عربياً أعجمــي الأبوين" مجيباً على هذا: "وأول من عليه أن يقر بهذا القحطاني فإنه لا بد من أن يكون لــه أب كان أول عربي من جميع بني آدم صلى الله عليه وسلم، ولو لم يكن ذلك كذلك، وكان لا يكــون عربياً حتى يكون أبوه عربياً، وكذلك أبوه وكذلك جده، وكان ذلك موجباً، لأن يكون نوح صلى الله عليه وسلم عربياً، وكذلك آدم صلى الله عليه وسلم"[٤].

يتبــين أن الجــاحظ توصل إلى أن نوحاً وآدم عليهما السلام كانا على علم بالعربيّة، بل همــا عربيان، وهذا جهد ومحاولة بسيطة من الجاحظ في معرفة أصل العربيّة كيف كان، ونحن نعلــم أن علــم اللغات وكيفية تطورها لم يكن معروفاً في عصر الجاحظ، وأن هذا العلم يوضح

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، كتاب مناقب الترك، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج٣، ص ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه ، رسالة فخر السودان على البيضان ، ج٣، ص١٩١، وج١، ص٣١.

(٣) عطية سليمان أحمد ،الجاحظ و الدراسات اللغوية ، مرجع سابق، ص١٧.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٣، ص٢٩١.

عــدم معــرفتنا لتاريخ العربية قبل الإسلام بأكثر من قرنين أو ثلاثة، من خلال النقوش والآثار الباقــية للعربيّة غير المعروفة، ولا نستطيع أن نجزم بشيء من تاريخها السابق حتى نصل إلى نوح وآدم"(١).

فــنحن لا نعلــم شــيئاً عن طفولة اللغة العربية وما اجتازته من مراحل في عصورها الأولـــى، وذلك لأن أقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد المــيلاد، فعلــى الرغم من نشوء اللغة العربية في أقدم مواطن الساميين، فإن ما وصل إلينا من آثارهــا يعــد مــن أحدث الآثار السامية، فيرجع أقدم ما وصل إلينا من آثار الآكادية إلى ما قبل القرن العشرين ق.م، ومن أثار العبرية إلى القرن الثاني عشر ق.م، ومن اثار الفنيقية إلى القرن العاشر ق.م، ومن الآثار الآرامية إلى القرن التاسع ق.م وهكذا"(٢).

إلا أن الجاحظ على الرغم من ذلك نجده في موضع أخر يأخذ برأي من قال أول ما فتق لــسانه بالعــربية المبينة هو إسماعيل، يقول: "قال أبو عبيدة: حدثنا مسمع بن عبد الملك ابن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عن آبائه قال: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربعة عشر سنة"(٣).

ويظهــر أن هذا الكلام فيه تناقض، فكيف يعيش إسماعيل منذ ولادته بين أهل الحجاز أصــحاب العــربية إلــى أن يبلغ عمره أربع عشرة سنة من غير أن يتعلم العربية حتى يفتق الله لــسانه بها، ومع هذا نجد الجاحظ يؤكد قوله في الموضع ذاته فيقول: "وقال النبي صلى الله عليه وسـلم شــهدت الفجــار وأنــا ابــن أربع عشرة سنة، وكنت أنبل على عمومتي يريد أجمع لهم النــبل"(٤)، ويتــضح ألا علاقة بين هذا الحديث وذاك. ومع ذلك كله، فما زال الجاحظ يؤكد ما قالــه، ولهذا فهو يرى أن إسماعيل بعد أن فتق الله لسانه بالعربية أكسبه أخلاق العرب، وفي هذا يقــول: "فــيجوز أن يكــون الله تبارك وتعالى حين حوّل إسماعيل عربياً حوّل طبع لسانه إلى لسانهم"(٥).

---

(١) عطية سليمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللغوية، ، مرجع سابق ، ص١٧.

(٢) علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، الطبعة الأولى، دار النهضة، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٩٧.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٣، ص٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٠.

لم يغفل الجاحظ عن الأثر الذي أحدثه ظهور الإسلام على اللغة، فأضيفت معان إلى ألفاظ قديمة، وأسقطت كلمات وصيغ عبارات جاهلية انتفت الحاجة إليها أو غلبت عليها كلمات وعبارات أخرى(١).

ومن أمثلة هذه الكلمات المحدثة ما ذكره تحت عنوان: "كلمات إسلامية محدثة"، يقول فيه "وأسماء حدثت ولم تكن، وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم، كأبي رجاء العطاردي بن سالمة، وشقيق بن سالمة، ومن الشعراء: النابغة الجعدي، وابن مقبل وأشباههم من الفقهاء والشعراء، ويدل على أن هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهلية ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون ، ومن المحدث المشتق اسم منافق لمن راءى بالإسلام، واستتر بالكفر، أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدامَّاء، ومثل المشرك والكافر"(٢).

ومن الألفاظ التي نهى الإسلام عنها وذكرها الجاحظ في قوله: "وأما الكلام الذي جاءت به كراهية عن طريق الروايات، فروي عن (رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يقولن أحدكم: كم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي"، كأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه، وجاء عن عمر، ومجاهد وغيرها النهي عن قول القائل: استأثر الله بفلان بل قال: مات فلان، ويقال: استأثر الله بعلم الغيب واستأثرا الله بكذا وكذا"(٣).

مما تقدم يتبين لنا سعة ثقافة الجاحظ ومعرفته بما يحيط به من حوله، فقد أدرك بحق أثر ذلك التطور الذي حدث في المجتمع ولغته بظهور الإسلام.

وأما عيوب الكلام فقد أشار الجاحظ إلى أهمية الحديث عنها في كتابه "البيان والتبيين"، حيث تناولها بالشرح والإيضاح، فبدأ حديثه عن عيوب الكلام قائلاً "ضرب الله مثلاً لعي اللسان ورداءة البيان حين شبه أهله بالنساء والولدان أو من يُنشا في الحلية وهو في الخصام غير مبين"(٤) فاستعاذ الجاحظ من هذه الصفة.

---

(١) داود سلوم، الجاحظ منهج وفكر، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص١٤٤.

(٢) الجاحظ، الحيوان ، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٠.

(٣) المصدر نفسه ، ج١، ص٣٣٥.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص١٢.

ومـــن هذه العيوب، الخرس، وفي هذه العلة يقول: "الأخرس: الإنسان ابدأ أخرس، إذا كان لا يسمع ولا يتبين الأصوات التي تخرج من فيه على معناه"[١]. فالعلة هنا عدم السمع.

ومنها أيضاً الضجم والفقم: وفيها يقول الجاحظ: "هو اعوجاج في الفم، والفقم مثله"[٢].

و بالنســبة الـــى قيمة الأسنان في صحة النطق فقد أكد ذلك في قوله : "قال سهل بن هارون: لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه، قال عمر بن الخطاب في سهل بن عمرو الخطيب: يا رسول الله انزع ثنيته السفلتين حتى يدلـــغ لســـانه، فـــلا يقـــوم عليك خطيباً أبداً... وكان في كلامه صفيراً يخرج من موضع ثناياه المـــنزوعة. كـــان أفضله بحسن المخرج والسلامة من الصفير... فذكر سلامة لفظ زيد لسلامة أســـنانه"[٣]. وقد أشار إلى هذا في موضع آخر "وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة"[٤].

ومن عيوب الكلام التي أشار إليها عيب اللثغة وفيه يقول: "اللثغة في الراء تكون بالغين، والدال والياء، والغين أقلها قبحاً وأوجدها في كبار السن وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم"[٥]. وكذلك ذكر التمام حيث يقول: "وقال الأصمعي: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام"[٦]، أيضاً ذكر العي في أول حديثه عن عيوب الكلام وقد أشرت إلى هذا آنفاً.

ويقول الجاحظ عن اللفف: "قال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف، وقيل بلسانه لفف... كأنه لما جلس وحده ولم يكن له مَنْ يكلمه، وطال عليه ذلك، أصابه لفف في لسانه، فكأن لسانه يلتوي ولا يكاد يبين"[٧]، وكذلك أشار إلى العُقلة في قوله: "في لسانه عُقله إذا تعقل عليه الكلام"[٨].

وقـــد لاحـــظ الجاحظ كثيراً من عيوب الكلام التي ترجع إلى العجمة، وحكى كثيراً عن أصـــحاب هـــذه العيوب، ومن هذه العيوب: اللكنة فيقول فيها: "ويقال في لسانه لكنه، إذا أدخل

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٤، ص٤٨٧.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٢، وج١، ص١٥و ٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٥٨- ٥٩.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٢.

(٧) المصدر نفسه، ج١، ص١٢.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩.

بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه المادة الأولى إلى المخرج الأول"[١] أيضا ذكر الحلكة في قوله: "فإذا كان الثقل الذي في لسانه من قبل العجمة قيل في لسانه حلكة، والحكل من الحيوان كله ما لم يكن له صوت يستبان باختلاف مخارجه"[٢].

ومن العيوب التي وقف الجاحظ عندها العيوب التي يتعمدها الخطباء، وبعض الناس مما يتـصفون بسوء القول والتصفح في الكلام، حيث يقول: "ومن الخطباء من كان أشغى، ومن كان أشدق، ومن كان أروق، ومن كان أضجم، ومن كان أفقم"[٣]، وأشار في مواضع أخرى من كتابه البـيان والتبيـين إلـى التقتير وسلاطة اللسان والتفيهق والاستعانة والإعادة والمهمار والثرثار والعجـز عـن البـيان والهذر والهندي والمكثار والمتلهيع والهجر وغيرها[٤]* . وهذه العيوب جميعها تنقسم في قسمين كبيرين: عيوب متعمدة وعيوب غير متعمدة.

والجملـة، لقد أثار الجاحظ في كتاباته اللغوية المتنوعة نظريات عدة، وأشار إلى عيوب الكـلام، وهذا دليل على ثقافته اللغويّة الواسعة، إذ تتضح ثقافته في كل سطر كتبه، فالجاحظ كان ومـا زال العالم اللغوي والأديب المفكر، وهو جزء لا يتجزأ من شخصيتنا وقوميتنا وحضارتنا العربية الأصيلة.

المبحث الثالث: ثقافته الصرفيّة:

تتجلـى ثقافة الجاحظ الصرفيّة من خلال ما عرضه من قضايا صرفيّة في طيات كتبه، ومن القضايا التي تعرض لها في هذا المجال:

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج١، ص٤٠.

(٢) المصدر نفسه ، ج١، ص٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٣، و١٣، ١١٣، ١١٤.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢.

- (المتفيهق) : قال الفراء : يتفيهق في كلامه وذلك اذا توسع فيه وتقطع.

(المهمار) : همر الرجل في كلامه : أكثر ، وخطيب مهمر : وفلان مهذار مهمار.

(ثرثار) : والثرثرة كثرة الكلام وترديده .

(الهذر) : الهذيان ، وهذر الجل في منطقه ... تكلم بما لا ينبغي .

(الهُجْر) : بالضم الاسم من الأهجار وهو الإفحاش في المنطق . راجع : عطية سليمان ـــ في كتابه ـــ **الجاحظ والدراسات اللغوية** .

ففي قضية الجمع مثلاًعرض أمثلة كثيرة ومنها :قوله تحت عنوان "استطراد لغوي" قال: "قال أبو زيد: الحمكة القملة، وجمعة حَمَكَ، وقد ينقاس ذلك في الدَّرة"[١].

وقــوله أيــضاً "والأروى: إنــاث الأوعــال واحدتها أرويَّة والناس يسمون بناتهم باسم الجماعة، ولا يسمون البنت الواحدة باسم الواحدة منها: لا يسمون بأروية، ويسمون بأروى"[٢].

ومن ذلك أيضاً قوله: "يقال فرج المرأة والجمع فروج، وهو القُبل والفرج كناية، والاسم الحــرَ والجمع أحرَاح، قال الفرزدق: قالوا إنما جمعوه على أحراح؛ لأن الواحد حرح هكذا كان أصــله، وقــد يستعار ذلك وهو قليل، الكعثب، وهو الأجم، قالوا: والطيبة اسم الفرج من الحافر والجمع الطيبات وقد استعاره أبو الأخزر فجعله للخف...إلخ[٣]".

و الناظر في كتاب الحيوان يجد الأمثلة الكثيرة على ذلك .

و أمــا قضية التركيب الإضافي فالأمثلة في ذلك كثيرة نذكر منها قوله: "المضافات من الحيوان" فيقول: "ويقولون: ذنب الخمر، وشيطان الحماطة، وأرنب الخُلّة، ووتيس الربل، وضب السّحا، والسحا بقلة، ويقال: هو قنفذ برُقه إذا أراد أن يصفه بالخبث"[٤].

و مــنها مــا قاله في أصناف الفأرة : "الفأرة في اللغة: أصناف ما يقع عليه اسم الفأرة، فأرة البيش وفأرة البيت"[٥].

و فــي قــضية المــؤنث و المذكر يذكر الجاحظ أمثلة و منها قوله: "قال: ويقال كلبة وكلب، وذئبة وذئب، وبرذون وبرذونة... ويقال رجل ورجال وامرأة ونساء وليس لها جمع من واحدها ويقال بعير وناقة"[٦].

ويشير في موضع آخر إلى مؤنث ومذكر الصفة للاسم وفي هذا يقول: "ويقال هو ضروْ للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهذا ضراءٌ كثيرة، وكلب ضارٍ، وكلاب ضوارٍ...

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٨ –٢٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص١٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٠٧.

(٦) المصدر نفسه ، ج٢، ص٢٨٤.

وقال الأصمعي: كلب ابقعُ وكلبه بقعاء، وفرس ابلق وفرس بلقاء، وتيس أبرق وعنز برقاء، وكذلك جبل أبرقُ وكساءٌ أبرق، وكلب أبرق"[١].

وقد أشار الجاحظ إلى المؤنث المجازي قائلاً: "والعرب قد تجعل الشيء أمٌّ ما لم يلد، ومن ذلك قولهم: ضربه على أم رأسه، وكذلك أم الهاوية، والضيف يسمى ربة منزله أم مثواى"[٢].

والناظر في كتابات الجاحظ يجد الأمثلة الكثيرة على ذلك، التي تدل على سعة ثقافته الصرفيّة، و على إلمامه بمؤنث و مذكر الكلمات .

و أخيرا ، قضية التصغير فقد لاحظ وجود التصغير والمعنى الذي يفيد كل وجه ومنها: من طريق الشفقة والرقة، وكذلك إن فُعَيْل في أسماء العرب يفيد هذا المعنى، أيضاً وجه آخر وهو التصغير للتحقير، وأخيراً التصغير عندما يكون خلقة وبنية، وقد ذكر أمثلة لكل نوع منها، يستطيع القارئ أن يتبين الفرق بين كل وجه منها، وفي مناقشة الجاحظ لهذه القضية دلالة واضحة على سعة إطلاعه وثقافته الصرفيّة، و في ذلك يقول تحت عنوان :" وجوه تصغير الكلام"، وذلك في كتابه الحيوان، فيقول: "وربما صغّروا الشيء من طريق الشفقة والرقّة، كقول عمر: أخاف على هذا العُريب، وليس التصغير بهم يريد، وقد يقول الرجل: إنما فلانٌ أخيٍّ وصديقي، وليس التصغير له يريد، وذكر عمر بن مسعود فقال: كنيفٌ ملئ علماً، وقال الحباب بن المنذر يوم السقيفة: أنا جُذيلها المحكك، وعذيقها المرجَّب، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: الحُميراء، وكقولهم لأبي قابوس الملك أبو قُبيس، وكقولهم: دبت إليه دُويهيَة الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقة المسلك"[٣].

ويقال إن كلّ فُعَيْل في أسماء العرب فإنما هو على هذا المعنى، كقولهم المُعَيْدِي، وكنحو: سُلَيْم، وضُمَيْر، وكُلَيْب، وعُقَيْر، وجُعَيْل، وحُمَيْد وسُعَيْد، وجُبَيْر، وكنحو: عُبَيْد، وعُبَيْد الله وعُبَيْد الرماح، وطريق التحقير والتصغير، إنما هو كقولهم: نُجَيْل ونُذَيْل، قالوا: ورُبَّ اسم إذا صغرته كان أملأ للصدر. مثل قولهم: أبو عُبَيْد الله، هو أكبر في السماع من أبي عبد الله، وكعب بن جُعَيْل، هو أفخم من كعب بن جعل، وربما كان التصغير خلقة وبنية، لا يتغير، كنحو:

---

(١) الجاحظ ، الحيوان، مصدر سابق ، ج٢، ص ص٨٠- ٨١.

(٢) الجاحظ ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، ج١، ص١٨٦.

(٣) الجاحظ ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٦- ٣٣٧.

الحُمَــيْا، والــسُكَيْت، وجُنَــيْدة، والقَطــيْعا، والمُــرَيْطاء، والسُمَيْرَاء، والمُلَيْسَاء، وليس كقولهم: القُصَيْرَي، ووفي كُبَيْدات السماء والثُرَيْا"[١].

وقــد لاحظ الجاحظ الطريقة الخاصة بأهل البصرة في تصغير الأسماء فيقول في هذا: "وإذا ســمى أهل البصرة إنساناً بفيل فأرادوا تصغيره قالوا: فيلويه، كما يجعلون عمراً عمورية، ومحمداً محمدويه"[٢].

وممــا يــدل علــى ســعة علمه وإدراكه بعلم الصرف، إشاراته إلى كثير من الكلمات الصحيحة من حيث البناء والاشتقاق [٣]، ومن إشاراته هذه قوله: "يقال للحية الذكر أَيِّم وأيْم مثقل ومخفف نحو: لَيِّنْ ولِيْن، وهَيِّن وهَيْن"[٤].

ومــن ذلك قوله أيضاً: "هي امرأة هَدِمْى وغَلِمة، وقال أكثر العلماء ما يقال مغتلمة وشاة حرمى، وناقة ضبعة، وفرس وديق، وكلبة مُجَمْعُل"[٥].

وتحــت عــنوان "اشتقاق الأسماء من الكبش" قال: والمرأة تسمى كبشة وكبيشة والرجل يكنى أبا كبشة"[٦].

وقال أبو زيد: نهشت أنهش نهشا"[٧].

ولــم يفــت الجاحظ أن يسجل لنا الأخطاء التي وقعت في صياغة الكلمات كقوله: "قال: أتــيت أعــرابياً فــي أهله مسلماً عليه فلم أجده، فقالت لي امرأته: عشر الله خطاك، أي جعلها عشرة أمثالها"[٨].

وقــال أيضاً في موضع آخر: "دخل رجل على آخر يأكل أترجه بعسل فأراد أن يقول: السلام عليكم، فقال: عسليكم"[٩].

و يظهــر أن هذه القضايا الصرفيّة التي أثارها الجاحظ في كتاباته وذكره لأراء العلماء فيها، إنما تدل على سعة علمه وإدراكه لقضايا الصرف العربي ووقوفه عند بعض مباحثه.

---

(١) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٨٥.

(٣) عطية سليمان ، الجاحظ و الدراسات اللغوية ، مرجع سابق ، ص٨٣ .

(٤) الجاحظ، الحيوان ، مصدر سابق، ج٤، ص٢٥٤.

(٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ ، تحقيق :عبد السلام هارون، مصدر سابق ، ج٢، ص٣٢٠.

(٦) الجاحظ ،الحيوان ، مصدر سابق، ج٤، ص٤٦٣.

(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٥٢.

(٨) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٩.

(٩) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٨.

نصـــروا رســـول الله صلى الله عليه وسلم وآووه، ولكنني سأدلك على غلام في الحي كافر كأن لسانه لسان ثور، يعني الأخطل"[١].

والملاحـــظ أن فـــي هذا المثل والمعلومة التي يطرحها في أوله فصلاً تاماً بينهما، فما العلاقة بين سلاطة لسان الأخطل وعظم اللسان عند من سقطت جميع أسنانه.

وقد أشار الجاحظ إلى بعض مخارج الأصوات، فتحدث عن مخرج الميم والباء، ضمن حديـــثه عـــن أول مـــا يتهيأ في أفواه الأطفال، فقال "الميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال كقولهـــم: ما ما و با با لأنهما خارجان من عمل اللسان، وإنما يظهران بالتقاء الشفتين"[٢]، فهو يرى أن الميم والباء من الأصوات الشفوية ولا عمل للسان في إنتاجهما.

ويشير أيضاً إلى مخرج الضاد قائلاً: "فأما الضاد فليست تخرج من الشدق الأيمن إلا أن يكون المتكلم أعسر يسرا، مثل عمر بن الخطاب رحمه الله، فإنه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء، فأما الأيمن والأعسر والأضبط، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد"[٣].

أمـــا مخـــرج الهواء من الأنف فهو مما حظي باهتمام الجاحظ فأخذ يحدد المكان الذي يخـــرج مـــنه الهواء قائلاً: "وكذلك الأنفاس مقسومة على المنخرين، فحالا يكون في الاسترواح ودفع البخار من الجوف من الشق الأيمن، وحالا يكون من الشق الأيسر ولا يجتمعان على ذلك في وقت إلا أن يستكره ذلك مستكره أو تكلف متكلف، فأما إذا ترك أنفاسه على سجيتها لم يكن إلا كما قالوا"[٤].

مـــن هذه الملاحظة يتبين لنا دقة الجاحظ وسعة علمه، فهو يهتم بكل ما يتصل بالنطق حتى مخرج الهواء من الأنف.

وقدعـــرض الجـــاحظ لظاهرة التجانس والتنافر بين أصوات اللغة وأثرها في صعوبة النطق بأصوات معينة فذكر بيت الشعر المشهور لدى علماء البلاغة كدليل على تنافر الحروف في البيت الواحد، وفي هذا يقول: "ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كان مجموعة بيت شعر لم يستطع المنشد إنشاها إلا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْـــــــر   وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ[٥]

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق ، ج١، ص٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٦٢- ٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٦٥.

والعلة الصوتية في هذا البيت هي تكرار صوت القاف قبل الراء أكثر من مرة في البيت الواحـــد، ولهذا نجد الجاحظ يقول: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"[١]، وسهولة المخرج التي يقصدها الجاحظ هي اجتماع الحروف المتجانسة معاً، والتي يسهل النطق بها.

وقد أشار إلى حدوث هذه الظاهرة بين أصوات اللغة في داخل الكلمة الواحدة وفي داخل الكلام قائلاً: "وأما قوله: كبعر الكبش، فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف، ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساً ولينة المعاطف سهلة، وتـــراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية سلسلة النظام خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"[٢].

ونجـــده يتحدث عن تفاخر الحروف في قوله: "فهذا في اقتران الألفاظ، فأما في اقتران الحـــروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف والطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن بالظاء، ولا السين والظاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري"[٣].

وتبيـــن للجـــاحظ أن الجهـــاز النطقـــي للإنسان يستطيع أن ينتج عدداً لا حصر له من الأصـــوات فقـــال: "ولكـــل لغـــة حروف تدور في أكثر كلامها كنحو: استعمال الروم السين، واســـتعمال الجـــرامقة للعين، وقال الأصمعي: ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء: ولا للسرياني ذال"[٤].

ثم يذكر أن كل مغلاق يظهر في كلامه اللغة التي ينتمي إليها بقوله: "وقد يتكلم المغلاق الـــذي نشـــأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه مغيراً فاخراً، ومعناه شريفاً كريماً، وتعلـــم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي، وكذلك إذا تكلم الخراساني وكذلك إن كان من كُتاب الأهواز"[٥].

---

(١) الجاحظ ، البيان و التبيين ، مصدر سابق، ج١، ص٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٦٥.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٦٩.

إلا أنــه لم يذكر العلة الصوتية لهذه الظاهرة بل اكتفى بتسجيل ما لاحظه وما سمعه عن الأصــمعي، وفي موضع آخر يذكر العلة في ذلك من خلال حديثه عن الحاكية وقدرته على تقليد الآخــرين [١]، فــيقول: "إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغــادر من ذلك شيئاً، وكذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والأجناس، وغيــر ذلك، نعم حتى نجده كأنه أطبع منهم، فإذا ما حكى كلام الفأفأة فكأنما قد جمعت كل طرفةٍ فــي كــل فأفأة في الأرض في لسان واحد... وإنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم لما أعطــى الله الإنــسان من الاستطاعة والتمكين، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاســتطاعة فبطول استعمال التكليف دلت جوارحه لذلك، ومتى ترك شمائله على حالها ولسانه علــى سجيته كان مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه وهذه القضية مقصورة على هــذه الجملــة من مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون، فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم"[٢].

أمــا غير الحاكية فإن الجاحظ يرى أن لكل أمة أصواتها الخاصة بها، يتطبع بها أبناؤها مــنذ النــشأة الأولى لهم لتمكنها في اللسان، ويذكر على ذلك أمثلة "ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيــراً فإنــه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا، ولو أقام في عليا تميم،و في سفلى قيس، وبين عجــز هــوزان خمــيس عاماً، وكذلك النبطي القح، خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط لأن النبطي القح يجعل الزاي سينا"[٣].

وقد لاحظ أن كل أمة تمتاز بخصائص صوتية معينة سجلها لنا في كتاباته تجعلها تنطق بأصــوات ولا تنطق بأخرى، وتبدلها بما تستطيع ولهذا نجده يقول: "إن السندي إذا جلب كبيرا، فإنــه لا يــستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا، ولو أقام في عليا تميم، وفي سفلى قيس، وبين عجز هــوزان خمسين عاماً"، والنبطي يقلب الزاي سينا فإذا أراد أن يقول زورق قال: سورق، ويقلب العــين همــزة، فــإذا أراد أن يقول: مشمعل، قال: مشمئل"[٤]. والرومي يحول العين إلى همزة، والسين إلى شين[٥]. والصقلبي يجعل الذال المعجمة دالاً في الحروف"[٦].

---

(١) عطية سليمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللغوية، ، مرجع سابق ، ص٦٨ .
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص ٦٩- ٧٠.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٧٠.
(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٧١.
(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٧٤.

ويذكـــر الجاحظ وجه التشابه بين بعض الأمم في أصوات يعبنها نحو ما تجتمع عليه لكنات الفرس والروم والنبط من جعل الحاء هاء فيقول: "صُهيب بن سنان يرتضخ لكنه رومية، وعبيد الله بن زياد يرتضخ لكنه فارسية، وقد اجتمعا على جعل الحاء هاء، أزدنقاذار لكنته لكنة نبطية، وكان مثلهما في جعل الحاء هاء"(١).

إن في ملاحظة الجاحظ لأوجه الاختلاف والتشابه بين بعض الأمم في الأصوات دلالة على الاطلاع الواسع وقدرته على التمييز فيما بينها تميزاً دقيقاً.

ويـــرى الجاحظ أن أصوات المخلوقات تزيد حسب الحاجات المختلفة في حياتهم، وفي هـــذا يقول تحت عنوان "رأي الهند في سبب اختلاف كلام الناس" :"وتزعم الهند أن سبب حالة كـــثر كلام الناس واختلاف صور ألفاظهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم في اللين والشدة، وفي المد والقطع كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم واتسعت على قدر اتساع معرفتهم.

قـــالوا: فحوائـــج الســـنانير لا تعـــدو خمسة أوجه... فلما قلت وجوه المعرفة ووجوه الحاجات، قلّتْ وجوه مخارج الأصوات، وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها"(٢).

وفي تأثير الصوت على الإنسان والحيوان، يقول تحت عنوان: "تأثير الأصوات": وأمر الصوت عجيب وتصرفه في الوجوه عجب، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة، ومنه ما يســـر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حـــالق وذلك مثل هذه الأغاني المطربة، ومن ذلك ما يكمد ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يُغشى علـــى صـــاحبه كنحو: هذه الأصوات الشجية، والقراءات الملحنّة، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني؛ لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم، وقد بكى ماسرجرويه من قراءة أبي الخـــوخ فقـــيل له: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به؟ قال: إنما أبكاني الشجا وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال"(٣).

وقـــد أشـــار الجاحظ إلى سرعة الصوت بالمقارنة لسرعة الضوء تحت عنوان "سرعة الضـــوء وسرعة الصوت" ولاحظ أن الأول أسرع من الثاني فقال:" ومتى رأيت البرق سمعت الـــرعد بعده، والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لا يصل إليك في سرعة البرق؛ لأن

---

(١) الجاحظ، ،الحيوان ، مصدر سابق، ج١، ص٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٢١.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ص١٩١- ١٩٢.

البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع، وقد ترى الإنسان، وبينك وبينه رحلة فيضرب بعصا إما حجراً وإما دابة، وإما ثوباً فترى الضرب ثم تمكث وقتاً إلى أن يأتيك الصوت"[١].

من هذه الملاحظات الصوتية التي عرضها الجاحظ في طيات كتبه، نستشف ثقافة الجاحظ الصوتيّة، وسعة إطلاعه.

---

(١) الجاحظ، الحيوان ، مصدر سابق، ج٤، ص٤٠٨.

الخاتمـــة

عنـــيت هذه الدراسة برصد ثقافة الجاحظ الأدبيّة والنقديّة واللغويّة، فثقافته ثقافة واسعة مـــنوّعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره، فهو عالم مـــن علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية، وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى، التي سرت في تيار الثقافات العربية منذ مشرق القرن الثالث الهجري، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك مـــن أســـتاذه الـــنظام ومـــن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلاميّة في عصر الجـــاحظ، ولاشـــك أن عصر الجاحظ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث وعكوفه على القراءة ، ونـــشأته بالبـــصرة، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمـــيّة، وتلمذتـــه على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها: كأبي يوسف القاضي، والنظام، والأصمعي، والأخفش، وابن الأعرابي، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان.

وتوصلت الباحثة إلى النتائج الآتية:

أولاً: يـــبدو مـــن مـــؤلفات الجاحظ أن ثقافته واسعة ولها صلات بالثقافات الأخرى المجـــاورة بالثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية، وغيرها من الثقافات الممتزجة بالثقافات الإسلامية في ذلك العصر، لذلك نجد أن مؤلفاته تحفل بأفكار الثقافات المجـــاورة، وبلغـــتها أيضاً ، مما يشير إلى أنّ الجاحظ مفكر وأديب موسوعي عربـــي إســـلامي وصلت إلينا أعداد غير قليلة من مؤلفاته، وهو يأتي بعد ابن المقفـــع إلا أن ما وصل إلينا عن الجاحظ أضعاف ما وصل لنا عن ابن المقفع، ولا سيما فيما يتصل بالثقافة العربيّة والإسلاميّة.

ثانياً: كـــان لمـــصادر الأدب فـــي عصر الجاحظ أثر كبير في إثراء أدبه، ومن هذه المـــصادر حلقـــات الـــدرس في الكتاب، والمسجد، وسوق المربد، والمجالس العلمـــيّة، "الأفنـــية"، ودكاكين الورّاقين، والسفر والترحال وأساتذته، وكان لكل منها أثره في تكوين الجاحظ العلمي.

ثالثاً: كـــان أدب الجـــاحظ- وما يزال- غذاءً فكرياً للأدباء، فلم يترك موضوعاً في عـــصره إلا كـــتب فيه، ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا صوّره، فكتب في شـــتى ألـــوان الأدب، وكـــتب فـــي الخطابـــة والمـــثل والوصـــيّة والرسالة

والقصص...إلخ، ذلك لأنه كان يتمتع بثقافة أدبيّة واسعة فهو في جمهرة الأدباء فنان مرهف وكاتب فذ. ففي الخطابة كان ناقداً عارفاً بتاريخ الفن الخطابي وأبرز أعلامه وحيواتهم، وكان مطلعاً على مواقفهم الخطابيّة، ووضع في سبيل ذلك أنظاره النقدية في معرفة عيوب كلام الخطيب، وما ينبغي أن يتوافر فيه من شرائط لإنجاح خطبته، وقدم لنا الجاحظ نماذج رفيعة متخيرة من الفن الخطابي، مما يدل على حسن اختياره وملكته الأدبيّة في الاختيار. أما الرسائل الأدبيّة التي صاغها الجاحظ بقلمه فتدل على تمكنه من الفن الكتابي تمكناً شديداً، وتفتح الأعين على سعة معرفته بأصول الكتابة الأدبيّة والإنشاء، وما استجمعته من قدرات فنيّة هائلة في صناعة الترسل، وأدوات لغويّة وتعبيريّة وأدبيّة مكنته من الكتابة في موضوعات سياسيّة واجتماعية وأدبيّة...إلخ، وما هذا الانتاج من الرسائل إلا دليل على رسوخ ثقافته الأدبيّة. وهو كذلك في فن القصص والوصايا الأدبيّة.

رابعاً: علينا أن لا نغفل ما للجاحظ من أثر عميق في الدراسات البلاغيّة والبيانيّة وما له من منقولات في علوم اللغة والنقد، مما يعني أن هذا الاهتمام مبني على حاجة المفكر والأديب والباحث إلى قدرات لغويّة متنوعة ليتمكن من تقديم أفكاره تقديماً دقيقاً وواضحاً لا لبس فيه، وما زال كتابه البيان والتبيين معرضاً لآرائه في اللفظ والمعنى والسرقات الأدبيّة والقديم والمحدث وغير ذلك من المباحث النقديّة.

وقد خدم البيان العربي خدمة لا تقدر – بالكتابة في كتبه – في شتى بحوثه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وألوانه، فهو يُعرف الاستعارة، ويتكلم على السجع، ويشير إلى الإيجاز والإطناب والمساواة، والاحتراس والكناية والتشبيه... وغيرها كثير.

خامساً: إن للجاحظ منزلة سنيّة بين اللغويين العرب، فقد استطاع بما اجتمع لديه من مؤهلات البحث اللغوي أن يترك آراء ثمينة في نشأة اللغة وتطورها والكثير من الآراء في الظواهر اللغويّة والنحويّة والصرفيّة والصوتية، ففي اللغة كتب عن نشأة اللغة، والعلاقة بين اللغات وبعضها، وتفضيله بعض اللغات على بعض، وأول من تكلم بالعربيّة، وأثر المجتمع على اللغة، والتطور اللغوي وعيوب الكلام. وأما النحو فلم يتعرض الجاحظ لمسائله وذلك لتحفظه على هذا

العلم والخوض في بحوثه، وعلى الرغم من هذا فهو على علم بالقضايا النحويّة الكبـــرى التي تدارسها أساتيذه وأصحابه. وتتجلى ثقافته الصرفيّة من خلال ما عرضـــه مـــن قـــضايا صرفيّة في طيات كتبه، ومن القضايا التي تعرض لها: قـــضية الجمـــع، وقضية التركيب الإضافي، وقضية المؤنث والمذكر، وقضية التـــصغير ، وأمـــا ثقافته الصوتيّة فقد تعرض لها من وجهات مختلفة: الجهاز الـــصوتي، ومخـــارج بعـــض الأصوات، ومخرج الهواء، والقوانين الصوتيّة، وأصوات الأمم.

سادساً: وأخيـــراً، أقول إن الجاحظ يمثل ظاهرة موسوعيّة في عصره و ما تزال كتبه وآراؤه وأفكاره مثار اهتمام الباحثين والمؤلفين والمحققين، فأدبه وفكره يمتازان بطابـــع خـــاص يشير إلى ثقافة موسوعية وذكاء ومهارة في البحث والتأليف، فاســـتطراده وخـــروجه من موضوع إلى موضوع، ومن باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل، لهو أكبر شاهد على ثقافته الموسوعيّة الهائلة التي كانت تمكنه من الحديث في كل ما يخطر على بال السامع، على حد من قال الشيء بالشيء يذكر.

"وآخر دعوانا أن الحمد لله"

فهرس المصادر المراجع

أولاً: المصادر:

(أ)

- الأصفهانيّ، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٨م)، الأغاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت .

الأغاني ، تحقيق : لجنة من الأدباء بإشراف عبد الستار احمد الفراج ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٩٩٠ / ١٤١٠م.

(ب)

- البغداديّ، عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة المصرية، صيدا، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

(ت)

- التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمّد (ت ٤١٤هـ/١٠٢٣م)، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(ث)

- الثعالبي، أبو منصور، عبدالملك بن محمّد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، ثمار القلوب في المضاف والنسوب، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

(جـ)

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م).

آثار الجاحظ، قدّم له واشرف على اختياره: عمر أبو النصر، مطبعة النحوى، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

البخلاء، تحقيق: محمد طه الحاجري، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٦هـ /١٩٧٦م.

البرصان والعرجان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الرشيد، بغداد، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

الحيوان ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .

رسائل الجاحظ، جمعها ونشرها حسن السندوبي، الطبعة الأولى، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٢م.

رسائل الجاحظ ،تحقيق شارل بلا،مكتبة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م

رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ- ١٣٩٩هـ/١٩٦٤م – ١٩٧٩م.

"فصل من صدر رسالته في تفضيل النطق على الصمت" ، مجلة المورد ، عدد ٩، سنة ١٣٦٨هـ/١٩٧٨م .

فصول مختارة ، تحقيق :محمد محمود الدّروبي ،دار البشير ،عمان ،١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

(ح)

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن حجر العسقلاني المصري (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الأصابة في تمييز الصحابة ، الطبعة الأولى، دار صادر ، بيروت ، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٧م.

لسان الميزان، الطبعة الأولى، حيدر أباد، ١٣٣٠هـ/١٩١٩م.

- الحصري، أبو اسحاق إبراهيم بن علي القيرواني (ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

زهر الآداب وثمر الألباب، شرح: زكي مبارك، الطبعة الرابعة ، دار الجيل ، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(ق)

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م .

- قدامة بن جعفر، أبو الفرج البغدادي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م)، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(م)

- المسعودي، أبو الحسن، علي بن الحسين (٣٤٦هـ /٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت ، د. ت .

(ن)

- النديم، أبو الفرج، محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٠هـ/٩٤٨م)، الفهرست، نشرة: يوسف علي الطويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(ي)

- ياقوت الحموي ، أبو عبدالله، ياقوت بن عبدالله (ت ٢٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

ثانياً: المراجع:

(أ)

- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب " نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- أحمد أمين: ضحى الإسلام، الطبعة التاسعة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

فيض الخاطر، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م.

- أحمد شلبي، الخلافة العباسيّة (موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة)، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة،١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- أحمد الطويلي، أبو عثمان الجاحظ: دراسة ومنتخبات، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- أحمد كمال زكي، الحياة الأدبيّة في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- إدريس بلمليح، الرؤية البيانيّة عند الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(ت)

- توفيق أبو الرّب، الحكاية في أدب الجاحظ، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(ج)

- جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- جورج غريب، الجاحظ: دراسة عامّة، الطبعة الأولى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

(ح)

- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

(د)

- داوود سلوم، الجاحظ منهج وفكر، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(ر)

- رابح دوب، البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- رفعت زكي محمود عفيفي، من مظاهر النقد الأدبي عند العرب، الطبعة الأولى، دار الطباعة المحمديّة، الأزهر، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(ش)

- شارل بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

(ط)

- طـه الحاجري، الجاحظ: حياته وآثاره، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩م.

(ع)

- عامر حسين عيسى الحلفي، أدب ما قبل الإسلام في تراث الجاحظ، رسالة ماجستير، كلية التربيّة، جامعة البصرة، البصرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠م.
- عبد الله أحمد باقازي، القصة في أدب الجاحظ، الطبعة الأولى، تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- عبد المجيد قطامش، الأمثال العربيّة: دراسة تاريخية تحليلية، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- عطية سليمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللغويّة، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، السويس، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، الطبعة الأولى، دار النهضة، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(ف)

- فيكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، الطبعة الثالثة، دار المشرق، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(م)

- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة، الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- محمد جبار المعيبد، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري دراسة ونصوص (العطوي) الجاحظ، الحمدوي، الطبعة الأولى، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩٧هـ/ ١٩٩٧م.
- محمد الحضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدول العباسيّة)، الطبعة الخامسة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٢٦٤هـ/ ١٩٤٥م.
- محمد رضا خضري ، الواقعية في أدب الجاحظ واسلوبه ،رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، عمان .
- محمد سعيد القزاز، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- محمد عويس، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- محمد محمود الدّروبي، آثار الجاحظ: دراسة توثيقية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

"رسالة جديدة للجاحظ في الهجاء"، مجلة المنارة، المجلد الرابع، العدد الثالث، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

- ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنقد في أدب الجاحظ، الطبعة الأولى، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

(ن)

- نعيم الحمصي وعبد المعين، من كتاب الحيوان للجاحظ، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(هـ)

- هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب حتي نهاية القرن الرابع الهجري، عمان، د.ت.

(ي)

- يوسف غيوة، الأسس الجمالية في الأحكام النقدية للجاحظ، قضية القديم والحديث نموذجا، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، العدد ٢٥، ص ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- محمد عويس، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، الطبعة الأولى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- محمد محمود الدّروبي، آثار الجاحظ: دراسة توثيقية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

"رسالة جديدة للجاحظ في الهجاء"، مجلة المنارة، المجلد الرابع، العدد الثالث، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

- ميشال عاصي، مفاهيم الجماليّة والنقد في أدب الجاحظ، الطبعة الأولى، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

(ن)

- نعيم الحمصي وعبد المعين، من كتاب الحيوان للجاحظ، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(هـ)

- هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، عمان، د.ت.

(ي)

- يوسف غيوة، الأسس الجمالية في الأحكام النقدية للجاحظ، قضية القديم والحديث نموذجاً، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، العدد ٢٥، ص ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

ABSTRACT

The Literary, Critical and Linguistic Culture of Al-Jahidh Via His Works

This study is mainly concerned about observing the aspects of Al-Jahidh's Literary, Critical and Linguistic Culture bearing in mind his status as a highly creative man of letters, a skilful ancient critic, and as a unique linguist who had a great impact on the many important aspects of literature, criticism and linguistics. And this research started from the very beginning from Al-Jahidh's own writings. In addition to this, it benefited from what had been written by ancient and contemporary writers about this knowledge.

This study consists of an introduction and three chapters. As for the introduction, it presents the reasons behind choosing this topic in specific and what this study aims at. And thus, the researcher presented, in chapter I, the effective factors which had affected Al-Jahidh's knowledge and his scholarly and scientific heritage. Chapter II deals with Al-Jahidh's literary Culture, being poetical or in prose.

While in chapter III, the researcher conducted a study about his knowledge as a critic. For this reasons, she tackled both his critical and rhetorical Culture.

In chapter IV, the researcher discussed his Culture as a linguist as it appeared in four fields (i.e.) his linguistic, syntactical, morphological knowledge.

The researcher, consequently; came to a conclusion that Al-Jahidh represents an encyclopedic phenomenon in his age for this bookd and theories are still the focal point that attracted the attention of many researchers, authors and editors who closely study Al-Jahidh's legacy. His literature and thought, then, are distinguished and characterized by a special peculiarity that indicates his encyclopedic Culture as he was able, through his qualifications an talents- that he possessed in the field of linguistic research, to leave invaluable views and theories. And he had a great influence on the field of rhetorical and structural studies. Also the researcher came up with the conclusion that Al-Jahidh had enjoyed an extensive literary knowledge and so he is regarded as a very delicate artist and a unique writer amongst the assemblage of literary figures.